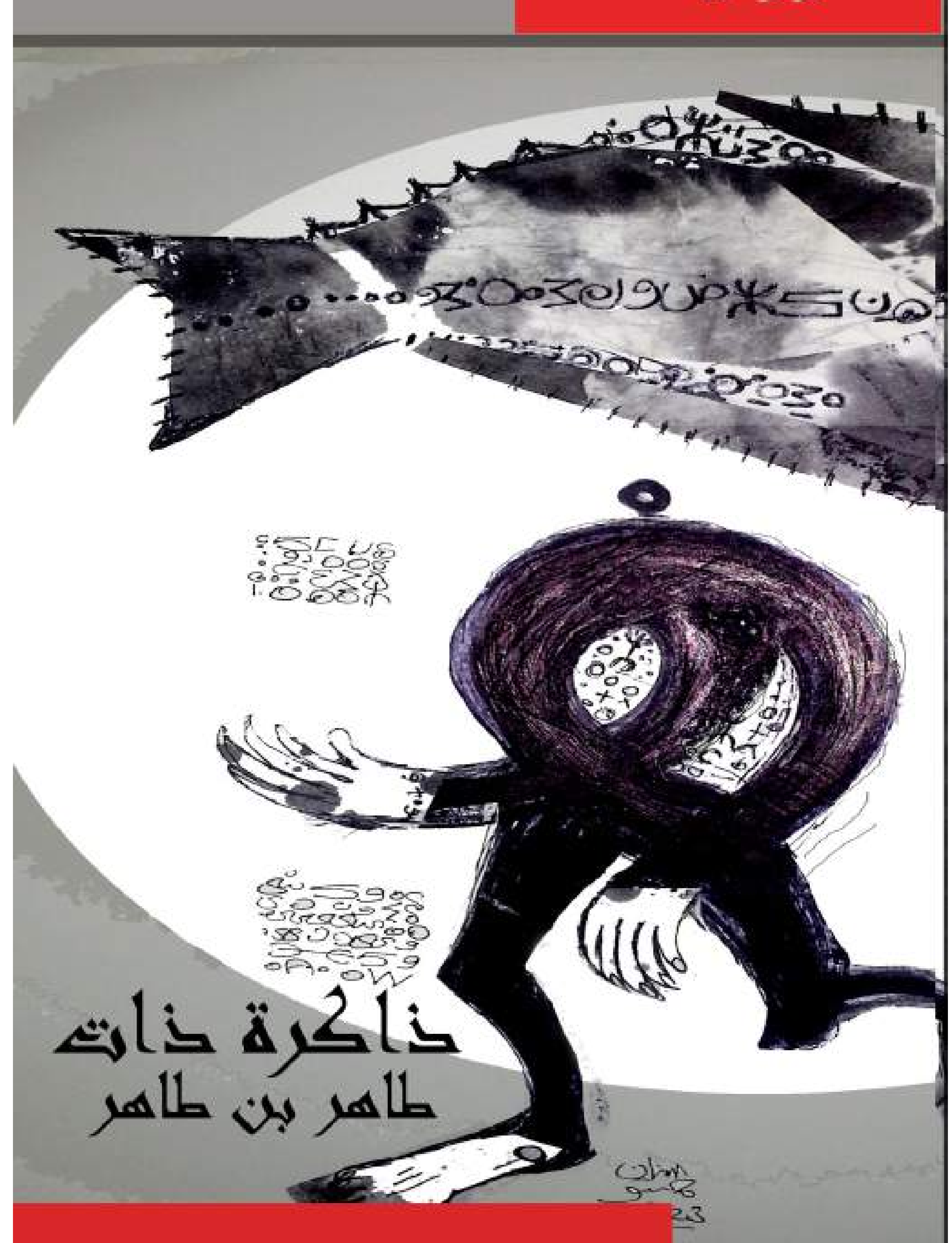


رواية
ذاكرة ذات
طاهر بن طاهر

ذاكرة ذات

د. طاهر بن طاهر

الكتاب : ذاكرة ذات (رواية)
المؤلف : د. طاهر بن طاهر.
الناشر: تالة للطباعة والنشر.
تصميم الغلاف ولوحة : أ. عدنان معيتيق
الطبعة : الأولى 2023
رقم الإيداع : 318 / 2023.
ردمك 3 - 349- 30 - 9959 - 978
دار الكتب الوطنية – بنغازي
الطباعة : شركة أسيل للطباعة والإعلان

مقدمة

يحقق الراوي في رواية (ذاكرة ذات) حضورا مميزا لشخصياته ولعوالمهم ومحيطهم عن طريق السرد المرّكز التأملي وشبكة التصوير المميزة؛ كل ذلك يقوده شخصية مركزية متأملة متوترة ومشحونة، شخصية تعيش المرض والألم والقلق، وتصرخ تحت وطأة ثنائية الطهر والعفة.

يحرك الراوي عن طريق المهدي السرد وتشتبك كل الشخصيات في علاقة ما معه، ونجد معه باستمرار الحاضر الغائب في هذه الرواية، تلك الزوجة ياسمين.

لا يتم الحديث مباشرة عن سبب أزمات المهدي وقلقه ولكن القارئ النبيه يعرف ذلك من خلال الحكاية التي أحسن الراوي حبكها وهو ينقلنا من حدث لأخر ضمن تأرجح لا يخلو من فن بين عالم الطهر والدنس من جهة وبين عالم المعقول وغير المعقول من جهة أخرى.

يتحرك الراوي مدججا بالكلمات الوظيفية، أو الكلمات التي تحقق في انفتاحها ودلالاتها المحددة التي قد لا يعرفها إلا قلة مستوى أخرا للنص غير ظاهر، الأمر الذي يجعل من خطاب هذه الرواية عديد مستويات الفعل والمعنى؛ بحيث يجد فيه القارئ البسيط العادي غايته عبر الحدث السهل الميسر، ويناور عن قارئه الخبير ببناء دلالة محكم.

تميزت الرواية أيضا بذلك التنظيم الزمني المميز الذي يتضمن الانتقال السلس من زمن إلى زمن، كما سيتابع القارئ، حركة الزمن من الحاضر إلى الماضي (غالبا) بشخصية الرواية الرئيسية: المهدي؛ حيث انتقلنا إلى زمن الثمانينات زمن دراسته في الجامعة وزمن تعرّفه على زوجته ياسمين، كما تمت العودة للزمن ذاته لرسم مجموعة أخرى من الشخصيات المختلفة حوله، وهي شخصيات متباينة في طباعها وميولها وفي مستوى معارفها بل وجنسياتها، نجح الروائي وراويه في تحريكها بحيث تشكلت بانوراما عامة لمكونات ثقافية تناسب بشكل دقيق ذلك الزمن، هذه الملاحظة بخصوص توظيف زمن محدد مع مجموعتين من الشخصيات لا رابط بينها تستحق الملاحظة؛ فطفولة المهدي وصباه (أيضا) كانت مادة لسرد الراوي الذي وضعنا من جهة في عالم سردي عجائبي كان مركزه سلمى تلك المرأة المسحورة فاقدة الزوج، ومن جهة أخرى كان مادة لرسم علاقة المهدي ببركة المربية السمراء أو المرأة التي كانت أداته (كعادة الراوي في هذه الرواية) لاستكشاف مجتمعها المغلق على نفسه.

العودة الزمنية التي ترتبط غالبا بنقلة مكانية كانت أداة الراوي لوضعنا في لوحة تأملية في ثقافة حضارة ما من الحضارات، لوحة بلوحة كنا نتابع تصورات المهدي وأفكاره وشبقه وقلقه ألمه وجنونه.

المهدي الذي كان مطاردا بعديد الدعاوى النصية (كما يسميها يقطين) تثقل كاهله وتجعل المتلقي مستعدا لما سيتابع من شقاء أيامه متأرجحا سعادة لا يجدها وألما لا يغادره. أحد هذه الدعاوى النصية كانت على لسان قارئة الكف من النوّر التي التقاها في زيارته للأردن صارت فيما بعد رفيقة أسطورية له، ودخل الراوي عن طريقها متأملا في تاريخ هذه الجماعة الغريبة بطبيعة حياتها المختلفة وقيمها التي تتبناها، وحقق تصورا مميزا لتاريخ شعب عجيب. دعوى نصية أخرى كانت على لسان الأم ضمن هذا الحشد من الفواعل العاملة لخلق التوتر والتوجس من المستقبل.

نتابع حركة المهدي مكانياً بين مصراتة ولبدة طرابلس والجبل الغربي، بالإضافة إلى الأردن ومصر، وكانت صورة المكان ترتبط بالحالة النفسية التي تعيشها الشخصية الرئيسية المهدي وتتأرجح بحسب حالته فتكون بحسب اللحظة السردية والنسق الزمني المستخدم، كما صاحب حركة الشخصية الرئيسية حركات أخرى لباقي الشخصيات حيث تابعنا حركة فتاة النوّر منطلقة من مكان اللقاء بالأردن إلى مجاهل التاريخ والجغرافيا، وتابعنا عن طريقها تاريخ هذا المكون الغريب في تصرفاته، كانت النقلة المكانية تتضمن نشاطا تحليليا وثقافيا للبعد الأنثروبولوجي لهذه الجماعة. هذه الحركة المكانية صاحبها كما سيتابع القارئ نشاطا

وصفيا مميزا جعل من الأمكنة حية مرتبطة بتلك اللحظات السردية التي مرّ بها الشخصية الرئيسية ومن هم حوله ضمن مجتمع النص.

تابعنا حضور شخصيات تكاد تشعر بها نابضة بالحياة حية، ومنها شخصية جمال الذي كان الراوي يبكي (بشكل غير مباشر) جريمة قتله في الصحراء في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل. جمال كان أداة لرفع وتيرة السرد، عبر صورته المميزة شابا ثم البكائية المميزة التي حاكها حوله، حركة تأملية لما يمكن أن يكون قد حصل له في الصحراء. أيضا نتابع حضور شخصية رمضان، الذي وجدناه مصابا يكاد يموت في نهاية الرواية وقد كان ضابط الإيقاع في العلاقة بين المجموعة في الجامعة في الزمن القديم، رمضان كان رفيقا مميزا للطالبة التونسية حفيظة المختلفة والمتحررة. أيضا نتعرف على عبد الله رفيق المهدي في رحلته الروحية، المتنقل في بقاع السحر والعلاج بين المرضى هنا وهناك ضمن حركة لا تخلو من شبق وضيع.

كانت الشخصية الحاضرة باستمرار والغائبة في الآن ذاته هي الزوجة ياسمين، كانت علاقتهما معا قاصمة الظهر للشخصية، وكان الراوي وهو يسلح صورة ياسمين في بداية الرواية بمئذنة المسجد خلفها كأنما يريد ان يهرب من صورة المرأة التي طالما عرفها شبقة شقية.

ياسمين وهي تظهر في بداية الرواية مجاملة محاورة متحدية في الأن ذاته لن تكون كذلك في نهايتها فماض المهدي وشعوره بالخطيئة ومكونه الديني الواضح رغم كل محاولات الإخفاء (هذه الخلطة العجيبة كلها) ستجعل من حياتهما جحيما باعتباره لم يكن شيخا ورعا ولا امتلك قلب فاجر. من زاوية اخرى فإن صور الرواية تنفتح في معناها وتحتاج لقارئ متأمل؛ خاصة ونحن في لحظات شطح الشخصية الذي يرى العالم من بطن ضبع أو من وعي مهووس بالجان والسحر والطلاسم، أو من وعي باحث بين النسوة عن أم مفقودة؛ أم ماتت وهو صغير، تلك الصورة التي قد تكون مصدر طمأنينته لو وجدها، الأمر الذي يجعله يحاول باستمرار (رغم كل ما يبذله من محاولات اخفاء) أن يبرز عيوب ياسمين التي كانت رغم كل ذلك زوجة وأم وطبيب. يظل هذا التقديم عاجزا عن قول كل شيء لأن هناك ما هو خفي فعلا وقد لا يدرك بسهولة، ولأن وظيفة التقديم هي التعريف لا التصريح.

عبد الحكيم المالكي

1

لم يكن مساء رائقا كما كان يأمل، تلبد أفقه وتشتت خياله، بعدما تراءت له أنثاه وتبدت بعيدة قصية، قد نبش الدهر محياها، وعبث بخرائط جسدها، تهدل جنباها، وكثرت شعابها ويبس عودها، كثمرة خوخ، نزع لبها، بدت متغضنة تملأها الشقوق، أكل الزمن رونق أيامهما، وعشش داخله قنوط ملازم ظن يوما أنه قد ودعه بلا رجعة، سمع من داخله أصواتا لمطارق وجلبة شوشت أفكاره، وأرهقت تفكيره.

قال في نفسه: يا له من يوم مرعب قاس، لم أوفق في تحقيق شيء مما خططت له أمسي.

راقب ذاته وهو غارق بين أوراقه يقلب صفحات كتاب فلسفي عتيق، لم تكن الأسماء التي تتردد بين جنبي كتابه غريبة ولا جديدة عليه.

أوراقه المبعثرة تشبه كثيرا أفكاره، يبدو منظرا متصدعا، لاهثا بين قراطيسه وكتبه المشرعة، على أبواب كثر لم يستطع إغلاقها، يقفز بين أنهر المعرفة متوشحا بالعجلة، متنقلا بين فروع متعددة، ما إن تلوح له فكرة حتى يهجرها ويطارد أخرى، لم يعقد عقدا ملزما لمنجز بعينه، هل سيظل هكذا مسافرا سائحا بين الرفوف وطيات الورق المتكدس حوله، ركل بقايا تشتته، وأنصت لذاته وهي

تحاوره، لم يكن يسمع صدى كلماته، لكن شيئا مفزعا جعله يحس أن لا جدوى من أوهامه وتوسلاته التي لا تنتهي إلا لتبدأ.

مراكب الخيبة تحط به في أسفاره على مرافئ الوهم والحسرة، أي عذاب يشعر به وأي نهاية عندما يشيخ العالم من حولنا، أشياؤنا الجميلة تبدو ذابلة، كيف بدت له رفيقته بهذه البشاعة، كيف لم يلحظ شفتيها الغليظتين، اللتان تشبهان في شقوقها نياق نجد زمن السفاد، كيف روى ظمأه سنين، وشرب من نبعها، كان مالحا كحليب النوق التي ترعى في سباخ الأرض، لم يكن لبنا ينتج زبدة، ولا ميصا.

هل ما أحسه هو صدى لما قالت ياسمين وانعكاسا لما باحت به، وهي صادقة، عندما قالت له: أنك لا تعدو أن تكون مظهرا متجددا لإرث قديم وأن داخلك يسكن ميراث الأولين.

عناوين الكتب تداخلت وتوزعت عبر أفق اشتغاله وانشغالاته، تمدد على كرسيه، أرسل بصره بين جدران غرفته، شعر برهبة هبطت عليه فجأة ودون سابق إخطار، أي حصار تحاصر به نفسك، وأية عزلة تعيشها، حياتك تشبه تماما كتبك المبعثرة بلا انتظام، وبلا موضوع يجمعها، ليست إلا مناسبات شتى تؤثث لمسيرة عقلك.

آه لو أحرق هذه الكتل الصامتة من الأوراق أو أغرقها في حوض ماء أذيب حروفها، حتى أراها سوادا ماحقا يلون ما شفَّ من ماء، ثم ألقي به بعيدًا يتسرب في جوف الأرض، ويغيب في بطنها، تماما كالقبر الذي سيحتويني يوما، لن تتمكن العثة ولا حشرات الورق من العبث بكيانك المرعب وجدارك السميك.

فجأة وضع سفره الثمين جانبا وتأمل في نفسه، استعاد جزءا من حريته عندما كتب ودون، ثم لم يلبث أن تقهقر أمام سيل التداعيات تجعل من عمله إشكالا متجددا، وورما متقرحا.

تردد قولها مطارق تهشم جمجمته وتستفز كيانه عندما باغتته كعادتها، وهي تسخر من إنشائه:

أي حبكات ساذجة تصنعها لنفسك، هكذا كيفما اتفق، واعتقادا منك كما تريد! تتخيل أنك بفعلك هذا امتلكت حرية ذاتك وتصورت نفسك حرا، عندما أمسكت القلم والدواة، لم يكن قلمك إلا محاكاة هكذا قالتها لك ذات يوم، وكنت غاضبا، لم تعرك اهتماما وواصلت القول: أنت إرث داخلك يكمن ميراث الأولين، حتى لو أنكرت على نفسك فعل المحاكاة، فإنك لا تعدو كونك تعرض الحقيقة المشتركة التي أقاسمك ولي نصيب فيها.

لم يكن جوابك غير قهقهة جوفاء رنت في صدى ذاتك، كوعاءٍ خاوٍ يشبه نداءً قادمًا من وادٍ سحيقٍ. كنت في جوف الجب لا يراك السيارة، وكان وجهها الصبيح يسد منافذ الشمس، وجهها المستدير وعيناها الواسعتان وكأنك تنظر إليها من خلال ماسورة طويلة ليس لك قدرة على المناورة، بدا صوتك حلزونيًا في مساره يصطدم بجلهات بئرك العميق، والمبلل بدفقات الدلاء التي تناوبت على فوهته، تتحسس الفطريات التي نبتت على جوانبه الزلقة الموحشة، ليتها تدلي حبالها وتمد يدها في صمت، وتنتشلني من عالمي المقفر. شعرها الكثيف تدلى من الفوهة يكاد يلامس أطراف أصابعي، ثم لا تلبث، أن تزيحه في ترفع وكبرياء، تبتعد عن الفوهة، وتتخلل ذاتي حزمة من ضوء نافر ترسمه شمس الظهيرة الحارق، أرقب العالم من مخروط مقلوب، تصيبني الوحشة، لن تكون الأفلاك أنيسًا، تعرف تمامًا أنها لن تتركك ولن تنتشلك من بئر اليأس، لم تكن تملك خصلات شعر هرقل، ولا قوة جنيات الخرائب، ولا شعاع قمر الحكايات، لم يبق منك غير نداءات تتكرر وأصوات تعلو، تدافع عن آخر حصونك المتآكلة.

قلت لها وبصوت حازم كل ما يخط يراعي وما ترسم ريشتي ليس إلا جزءا من حياتي الداخلية، وأكاد ألمسها حروفًا تتدلق دون إرادة مني لأفقد السيطرة على انسيابها، أقول ما أعتقد أنه يؤثر في الآخرين، ولا يعنيني إن كان سلبًا أو إيجابًا.

دفعت فنجان القهوة، وبدت متكئةً على الأريكة تنظر بعين الريبة والقلق، جزم داخل نفسه أنه الآن أكثر استعدادا وقدرة ذهنية لسماعها، حاول أن يربط خيط المودة بينهما، في محاولة لإنتاج معنى لخلوتهما.

كان المرسم المكتبة يضج باللوحات الملقاة دون انتظام تجمع مراحل فنه المختلفة، فلوحاته الأولى التي مثلت واقعية خالصة، لوحات للطبيعة لوديان حلم بها ذات ليلة، وأخرى رومانسية لفتيات بشعر أسود فاحم حينا وبلون الذهب أخرى، ولجداول بألوان متماوجة استوقفته لوحة على الجدار رسمها لها عندما كانت تمثل أفقا لانتظار طويل.

مد يده داعيًا إياها أن تجلس أمامه كي يعيد رسمها من جديد، تساءلت بين الشك والريبة، والفرح:

أي أمر دهاك حتى تفكر في رسمي من جديد؟ أيها الشقي**!** قالتها بشيء من التدلل، وابتسامة خجلى تستقر على شفتيها.

ـ لا شيء يا عزيزتي غير أني أود تقديمك إنسانًا فردًا تتجلى فيه شخصيتك، أريد لك تباثًا، أريدك كائنًا غير متحول، أحاول أن أتبث فيك الزمن لحظة لا تتغير ولا تتبدل.

+ ومن قال إنني تغيرت وتبدلت، أنت من ...

قال في نفسه أود أن أدمر هذه المرأة من خلال رسم صورتها، خاطبها صورتك أيتها المرأة هي نموذجي المتخفي داخل نفسي، مخطط له قبل أن أراك.

+هل جننت يا رجل؟

- صورتك لن يكون لها علاقة بالأصل، سوف أرمي بعيدًا ذلك النموذج المتعجرف المتكبر والمتعالي السادي، سأجعلك تبدين أكثر طيبةً وأكثر رحمةً، لن يراك المشدوهون إلا ملاكًا، سأخفي فيك صورة الشيطان الذي خبرته، حتى ثوبك الذي تختالين فيه لن أصنع منه قيمة، سأجعل وجهك مركز الإشعاع، لم تكن أثوابك إلا مهرجانًا لمعرض أزياء، يدغم مع الحركة لشد الانتباه، لأني لا أؤمن أن روعة المظهر تشد انتباه المتلقي.

بدت مستسلمة لحديثه تستمع دون أن تنبس ببنت شفة، شجعه الموقف على الاستمرار في نفض غبار تراكم بفعل السنين. قال وبشيء من التبجح لا يخلو من تكبر:

- عزيزتي لن أكون إلا عارضا لذاتي، سأرسم تاريخي عبر وجهك، وعبر نماذجي، لن تكوني إلا نموذجًا يكمل دورة فني.

لن ينظر القوم من حولي ولا يعنيهم من تكون هذه الشخصية، سيتساءلون عن المعنى، وهل تعتقدين أنهم سيفهمونها على أنها صورةً شخصيةً، سأتقصد تحطيم العلاقة الممكنة عمليًا بينك وبين الصورة أي بين الأصل والصورة، ما يهمني ليس صورتك الشخصية لكن الأسئلة التي ستثار عن أصول هذه الصورة وما يمكن إدراكه خلفها. لن تكوني غير وثيقةٍ تاريخيةٍ تحمل خبري من خلال صورتك، سيقولون لوحة الفنان الذي عاش حياةً قلقةً وتربى في مدينته وغادر بيته صغيرًا، وأنه عاش في زمن كذا، سيعرفون كل خصوصياتي عن طريق رسمك.

+: هكذا معشر الفنانين والأدباء تشكلون حصنا منيعا للأنانية وحب الذات لكن رغم ذلك تبقى الصورة الشخصية صورة فهذه الموناليزا لم يكن لها غير اسمها، إنهم من خلال صورتي سيعرفون اسمي، سيعرفون أنني ياسمين صاحبة الصورة، هل تعتقد أنهم سيتساءلون عن من صور هذه الصورة، سيدون اسمي ومعلوماتي رغما عنك، سيكتبون معلومات عني باعتدادي صاحبة الصورة، سأكون حاملة لدلالة الصورة ومضمونها سيغضون الطرف عنك وعن أسباب رسمك لي.

لن يقال أنه كان قلقا ذات مساء واستلقت بجنبه أنثاه، كان عاجزًا أن يكتب حرفًا أو يملي قصيدةً كانت فرشاهُ جاهزةً، وسأكون الجسد الملهم لملاحظاتهم وتعليقاتهم.

- سأقدمك بصورة تمثيلية، قد تكونين تمثلين نفسك في الصورة، لكنها ليست طبق الأصل، ولن تكون منتميةً للأصل، إنني أقوم بترهين اللحظة، وأرسم تاريخًا قائمًا بيننا، وأطلق العنان لذاكرتي تتخير منك ما تريد.

الآخرون كما يشتهون ويرغبون، ولن يكون حكمي أو حكمهم هو الفيصل، لن أعيد إنتاجك وفق تصورهم، هنا وبريشتي سأرسم مثاليةً أتخيلها، صدقيني سأكون أكثر حميميةً من واقعي، وسأكون أكثر قربًا منك، إنك بالنسبة لي تمثلين فردًا مفردًا، وليست أنثى سابحةً في ملكوت الإناث، كائنٌ حقيقيٌ، ومظهرٌ ماثل.

سأرسم مئذنة خلف رسمك، ستكون صومعةً مألوفةً لديك ولجمهور المتلقين، أحاول إحياءها، فحضورها يمثل جانب اللين والتسامح الذي أفتقده اليوم فيك، إنني أبحث عن التجلي الذي أنشده،

تكونين حاضرة في دلالاتها، هذا التجلي قد يمكنه قول شيء ما يخصنا.

صورتك الشخصية والصومعة شعاعان، فنيا يبرزان الجانب الخفي لحياتنا ووجودنا.

+ ستظل ينهشك داء الخطيئة من داخلك، تحاول استحضار المدنس والمقدس في علاقتي المشبوهة معك، وتاريخ هذا الارتباط الذي يشكل ضغطا حائلاً يواجه المقدس داخلنا، ينبغي أن تنحني لي وتقبل قدمي يا عزيزي، فمدنسي هو الذي أخرج المقدس داخلك، كان ينبغي أن تلوم نفسك بعدما تخطفتني شابة مراهقة تتمخطر داخل أروقة الفكر وتنشد الحقيقة، لم تكن إلا وهمًا وافتراءً متجددًا مثل رسمك الذي تخطه الآن، لا تجعل مني مردمًا للخطيئة، وكومة للرزايا.

واصل تأمله غير مكترثٍ بما تقول، محاولا استرضاءها بطريقته الماكرة: هل تعلمين أن رسمك اليوم لو اطلع عليه الكثيرون لعدوه عملا فضائيًا بامتياز، بل ربما يكون إثمًا لكثير من الورعين التقاة، دراعك الناعم الذي ينسكب في الأفق يقترب من لمس رأس المئذنة، بينما جيوب ثدييك يثيران غريزة المتطلعين لصورتك.

قال وهو يبدي ضيقا وبرما من نفسه، هل حقًا يا صغيرتي أنني أعمد إلى فعل المدنس وأنتهك المقدس، ربما يعده الكثيرون فسوقًا، الجسد البشري بجلاله خطيئة، عندما يرافق الأمكنة التي خلقت لأجله، هل أستطيع أن أعري أجساد من يرتادون القباب كما أعري جسدك الآن؟

رغم ذلك أنت لست إلا حدثًا فنيًا، لكن المئذنة تتحول رمزًا للذي أردت، لا يهمني ماذا سيقول القوم من بعدي ومن ورائي، وما

الذي يفهمونه، وما الذي يعنيه لهم؟ مهمتي هو إنجاز الصورة ليس أكثر.

نظرت في عينيه مبتعدة بجسدها عنه، ليس من شيء في الصورة غير إحالة على ذاتك التي أعرفها، تحيل ذاتك للصورة، إنك تمارس عملية الاستبدال، وربما الاستعارة تماما كما تنتج القصيدة، أو الجمل التي تعبر بها، بدائل واستبدالات وتمثيلات تخرج فيها ذاتك المترددة والحائرة، الواقفة دوما على الأعراف تنتظر الحساب.

- أنتِ الآن موجودة على الورق، تستطيعين الإعلان عن نفسك، سيتلبث المشاهدون يحملقون ويعيدون النظر، تماما كما يفعلون مع فاصل إعلاني، يقول الكثير ويخفي الكثير أيضًا، لن يكون وجودك إلا من خلال غيابك.

+ هل يعني هذا أنك تمارس الإحالة وتستبدل حضوري بالغياب، لتقول أن ذاتي غير حاضرةٍ لتمحو عبر لوحتك، وجودي وكياني، وما سكبته في قلبك من عطر عواطفي، وامتزاج جسدينا، إنك مصابٌ بالسادية، لقد نجحت في تحويلي إلى لوحةٍ تجريديةٍ صدئةٍ ملقاةٍ في ممر جبلي مهجور وقصي.

- ليتني أستطيع، أن أقتلع صورتك التي التصقت بماضي، وتشبثت به لا تريد الفكاك منه، الذي هو للأسف يشكل حاضري، ستكونين حضورًا وتذكارًا خاصًا باعتبارك شيئًا من ماضي الذي سيشكل حاضري.

+ إيه أيها المخادع الماكر! أعتقد جازمةً أن التذكارات ستفقد قيمتها، برفضك العودة للماضي، وكذلك أنا، لن يصبح لماضينا معنى، بعدما وصلنا إلى اضطراب العلاقة، بواقعك الذي يوشي ويتشكل على يديك هاتين، وذلك بنيتك الارتباط بغيري. لن ترضى أن يكون واقعك

مشوها برجوعك للماضي والعيش فيه، إنني كأنثى أغرق في الذكريات أتشممها وأتحسسها، وترافقني، نحن الإناث نترمل، ونحلب ضرع الذكرى، نلقم الفسائل التي نبتت من غرسكم معشر الرجال، ونحن سعيدات راضيات، ذاكرتنا تسيطر على أذهاننا وترسم حاضرنا وتخطط لمستقبلنا.

ـ لكنني أحلتك رسما وكفى، علامة في طرق ملتوية سلكتها، ولكي يمكنني العودة، سأجعل علامات أهتدي بها.

+ صدقني لن أكون علامةً من خلال صورة مرسومة، هل بإمكانك أن تجرد صورتي من حمل مضمون يخصني وحدي، سينمو هذا الحضور مما يجعل الحضور هو الصورة نفسها، ولن أكون بالنسبة لك باعتباري أصلا إلا تأملا جماليًا فنيًا خالصًا.

إنك تعمدت إقصائي بإدراجك للمئذنة ذلك الرمز الديني، الذي يؤشر لجماعة ربما يكون انتماءك لهم أكثر كثيرًا من تواصلي معك، اخترت المقدس،أبعدتني كوني مدنسًا، لقد أخذت الصومعة مكاني، لن يكون لوجودي معنى، فأنا الغياب رغم حضوري كائنُ من لحمٍ ودمٍ.

ـ هل تنكرين علي لحظات من الإيمان تمثلت في الصومعة، التي تأبى إلا أن تعلن عن نفسها أشعر أنني أتآلف وأتوحد معها، وهو التآلف ذاته مع رسمك، غير أن صورتك تقدم ذاتها من خلال ذاتها، بقدر المعنى الذي تحمله والممكن الذي تمنحيه، إنك الأصل كما ترين، وأكثر كمالا، فما يبدو من الصومعة أقل مما استتر منها، تبدين كشيء حقيقي تحجبين في كبرياء صورة الصومعة حتى يتخيل للرائي أنها خلفية باهتة.

+ لم أعد أدرك هل حقًا أنا التي أتصدر المشهد أم الصومعة، بمحمولاتها الفكرية والدلالية، أحس أنني لا أؤشر لشيء، ولم تعد صورتي تحمل شيئًا.

ـ نعم حبيبتي أنت في الوسط موقعًا، رفعتك إلى مستوى أعلى لا تستطيع الرموز ولا العلامات بلوغه، إنك مضموني الخاص الذي لا يشاركني أحد فيه، إنك أساس دون مرجعٍ، ولاسننً، إلا ما رسمت أجسادنا وما خطه كلانا في صفحة الوجود.

لن تكوني علامة عندما وصفتك وأنا في حالة غضبٍ، لن تكوني علامة طريق أو ملصقٍ إعلاني، ولن أستطيع ذلك، فأنت لا تخضعين لقوانين وزارة المواصلات ولا إشعارات البلدية أنت متجددة في سمائي، أنت لست هلالا يرسم على قباب المساجد، ليس لصورتك وظيفةً مناطةً بها، وليس مطلوبًا من المشاهدين وقفة تبجيلٍ أو شعورٍ بالتقوى، يكفي أنني أهتز كلما نظرت إليك تختلط المشاعر، ويسكب الماضي حنينه لشوق الحاضر، لنتعانق كما نفعل الآن.

2

صحا في اليوم الموالي، وسط بِركةٍ من الفوضى داخل المكتبة والمرسم في آن واحد، كانت ياسمين قطة أليفة ترقد متكورةً على نفسها، كما ينام جنين داخل الرحم، كانت شفتاها تحتضن إبهامها وتطبق عليه في براءة تامة، ألقى عليها نظرة عطف، ولم يكن يشتهيها.

أعد فنجان قهوته، بدأ احتساءها واقفًا رأى من نافذة مرسمه المدينة ترسم لوحتها الأبدية والمتكررة، كان وادي ميزران يوشك أن يمتلئ بالعربات، وبرجال يترجلون مسرعين، ليحملوا حملهم الثمين من أكواب المكياتا والكابشينو وقارورات المياه، لينطلقوا من جديد، تراءى له الشارع في نهايته، حيث بدت السرايا كقلعة تخرج من بطن التاريخ، تواصل دورها في رسم المعالم وحفظ الذاكرة.

لا يدري كيف خطر بباله تلك الرحلة العقيم الذي صحبته فيه (ياسمين...) لم يكونا متواعدين أو بينهما مواثيق، الصدفة من تلعب الدور وتؤسس لعلاقة طويلة تمتد عبر مسافة زمنه، جامعة طرابلس تضج بالحركة وتمتلئ حدائقها وميادينها بالجنسين أكثر من قاعات الدرس التي تبدو خاويةً، لتعود وتمتلئ بعد الدوام، بعشاق حالمين يتهامسون، ويتساررون ويتناجون بينهم.

كانت تحدث صويحباتها للمشاركة في رحلة محتملة لمدينة لبدة، ما إن سمع اسم المدينة يلفظ حتى تدخل وقدم مجموعة من المعارف حول المدينة وتاريخها، كانت تشاطره المعلومات وتناقشه، وانتهى الأمر لدعوته بالانضمام والاشتراك، ومرافقتهم، إن شاء ورغب، وحتى لا يكون مصدر إزعاج اتفق أن يذهب ورفيق له بسيارتهما الخاصة.

نظر إلى جسدها الساكن، وأنفاسها الهادئة، حيث الشحوب قد غط وجنتيها، جدوةً كانت تتقد، عندما سارا متحاذيين متحدين متلاصقين وسط الشارع الكبير داخل المدينة الأثرية، شعر أنه أحد أمراء الروم وسط جوقة التاريخ، تهادى كلاهما بفرح، عندما مر بالحمامات الرومانية رآها تلف منديلا أبيض يكشف عن كتفيها، تلفه على الطريقة الليبية، وأعمدة البخار ترتفع من حولها ومن جسدها الفائر، الفوار، تدلت قدماها الرقيقتان وسط بركة الماء الجاري، كانت العطور المصطفة على جدران البهو الكبير، ونساء كثر يفترشن الأرضية المرمرية الرخامية، بينما تماثيل كثيرة ترسل سهامها، وتحمل زقها، كانت الصبايا غير مكترثاتٍ ينثرن الماء على أجسادهن العارية، ويتقاذفن بالكلمات النابية التي تحرك المشاعر حسب زعمهن.

عندما انتبه من شروده الموغل في أركوليجية المكان، تبين أنها كانت تكلمه، عن الحمامات والمعابد، وكيف أنها تؤدي وظيفتها بطريقة خاصة، وتقدم خدمةً، وبمعمارية تناسب دورها، مما يعني بداهة أن جمهور النساء اللاهيات العابثات هن نفسهن سيدات المجتمع، اللواتي سيسرن خطوات للمعبد يجلسن بكل هدوءٍ ورهبةٍ في قاعات كبيرهم، بعضهن يلتمسن البركة والخصب والنماء، وأخريات يبتهلن الحب أن تصيب سهامه شغاف من يحببن.

تساءلت ياسمين، هل حقًا كان سكان المدينة سعداء؟

ـ لا أدري ولكنهم بالتأكيد يشبعون رغباتهم، والدليل أن منشآت المدينة قد حققت الغرض، أعتقد أنه جيدٌ ومتكامل.

+ تسحرك لبدة بعظمتها واكتمالها، لابد أنها كانت إضافةً وأنها شيئًا جديدًا في النسق والأبعاد في فضاء هذه المدينة، تبدو المدينة منظرًا طبيعيًا خلابًا، حقا إنها تقدم عملا فنيًا رائعًا.

ـ إنك تقفين أمام صرح معماري قديم، لابد أنه كان حلا لمشاكل في وقتها، وأوافقك أنه كان عملا فنيًا جماليًا يستحق التفكير فيه، بمعنى أن العمارة لم تكن حلا لمشاكل ذلك الزمان وحسب، يستوفي غرضا عاما للحياة، أظن أنه يشكل تمثيلا لسياقاتٍ تاريخيةٍ. رأى قريته النائمة، بأسوار البيوت العالية، وأبوابها الحصينة التي تشبه في تصميمها القلاع والحصون، رأى أجسادا باهتة بلاها الظل بصفرةٍ مزمنةٍ.

لاحظت شروده اللحظي، مررت كفيها أمام ناظريه، وقالت بصوت مترنمٍ مموسقٍ فيه دلال الصبايا؛ احم نحن هنا، كانت حاؤها تخرج كحلم وردي، بينما ميمها همسات ووشوشات داعبت سمعه، سافر بعيدا قطع مسافات الخيال يده تحوي كفها الصغير والناعم.

ـ نعم إنني أسمعك وأتابع ما تقولين.

+ قالت مسترسلة في إطار الفكرة المطروحة: حقا يبدو من خلال واجهات المباني المزخرفة التي قد لا تكون ذات صلة بغرضها الأصلي، فالتماثيل المقامة في كل ركن قد لا تكون تمثل حاجة للعيش، وربما أن الاهتمام الأصلي يضيع وسط زحمة الإضافات.

ـ دعينا نتجه يمينا ربما نقترب أكثر من المسرح الأثري،

شعرت أنني في كل خطوة أخطوها أشعر أن غموضا ينتابني عند دخول أي مبنى المعابد والمسارح والأسواق في الطرقات في الحمامات، حيث التماثيل هي الطابع الذي يهيمن على بنية أشكال الفنون، مما يدعوني للتساؤل هل المدينة تمثال كبير يشرع ذراعيه لالتهام موجات الوافدين، ليمدهم بنسغ الحياة، من حب وكره ومكر وطيبة وخداع وحكمة وضلالة، ومن طهارة ورجس؟

+ هل يؤشر ما ذكرت تصميما معماريا يتماشى مع نمط الحياة وأسلوب التفكير حينها، ويرسم سياق الحياة ذلك الزمان.

تذكر نمط المدينة الإسلامية وطريقة معمارها، عندما كان المسجد مركز المدينة وقلب الرحى الذي تدور عليه دوائر المدينة، بدت له المنصورة حين بنائها بغداد اليوم والمنصور يخط بيمينه على الورق المصنوع بتقنيات الصين، وهو يتخير مكان المسجد، يؤمن بدوران الحياة والكون من حوله، تجلى في مدينته مدينة القباب والأقواس.

ـ نعم بكل تأكيد العمارة تعطينا الفرصة كونها تمثل نسق حياة، وكونها موضوعا فنيا وجماليا يوقظ وعينا الفني، حد الوهم، يحمل جاذبية تدعوك إلى التقاط الصور وبزوايا مختلفة، وتتحول إلى غرض سياحي ومتاهة للتأمل.

تبادلا الكاميرا والتقط عشرات الصور، ودعيا المرافقين لالتقاط صور تجمعهما معا وحيدين بخلفيات أثرية مفعمة بالتاريخ وحبلى بالرجاء والأمل، عل صورتها التي رسمها الليلة الفائتة تشكل جزءا من تاريخهما المعماري الطويل، لقد تبدت أنثاه في الصورة كما يراها، أن الأيام لم تغيرها ولم تبدلها، اختفت التماثيل وصورة المسرح، لم يستوعب لماذا قفزت الصومعة خلفية راسخة تذيب كل فنون العمارة المشكلة لمسيرة جسديهما.

+ ألا ترى أن المرأة حاضرة في التماثيل تفرض وجودها داخل المباني المحيطة، عيش الماضي محاولين دمجه بالحاضر، لبدة لاتقف ساكنة في مجرى التاريخ إنها تحمله معها.

ـ تساءل وبصوت مسموع حمل ثقل الماضي ومعاناة الحاضر، هل يمكن للمدينة أن تعيد بناء عمارتها السابقة؟ بمعنى أيمكن أن تدار عجلة التاريخ للخلف؟

لم يكلفها مشقة الرد، بل سارع بالقول:

إن من بنى هذه العمارة كان فنانا، وفيلسوفا أديبا، وكاهنا عابدا، واءم بين الأنساق جميعها، فلم يكن حضور معبوداتهم في المعابد فقط كانوا محاصرين بها وهي من تكيف نفسها حسب المهمة المنوطة بها، ورغبة المستفيدين.

÷ يكفي اليوم أننا في فضاء لبدة الرحب، وهو الذي أعطاها شكلها المميز واستحقت وصفها بلبدة العظيمة، إنها مدينة لها فضاؤها الخاص الجامع لجميع أشكال التمثيل، والزخرفة والفن التشكيلي، لبدة منحت للشعر وللموسيقى والمسرح و الرقص مجالا من خلال منظورها الخاص بها عبر مسارحها ومعابدها وطرقها عبر محاولات تزيينية لصروحها.

ـ العمارة هي التي منحت هذا الفضاء شكله، فلا نستغرب أن نجد لبدة معرضا شاملا لكل الفنون الأخرى، أين فضاء مدننا وعمارتها المشكلة لهويتها، لفنونها ومعتقداتها ورؤاها، إنها تغيب في فضاء الفوضى والعشوائية.

+ الفضاء هنا يكتسب الشمولية بطبعه التزييني، الذي يجدب الساكنين ويرضي ذوقهم، وربما يكون شبعا لبطرهم وملأ لمعتقداتهم، وفقا لسياق الحياة حينها.

لم يكن عمل الحرفي إلا إلهابا لعبقريته، بمعنى أنه وسيلة يخضعها لما ينبغي أن يزين، فجمال الزينة يتحدد وفقا للعلاقة بالمبنى

المراد تزيينه، فالمسرح يختلف في زخرفه عن المعبد عن الساحات، فالحرفي يلبس المكان الزينة اللائقة به.

ـ وكأنك تعيدين قول كانط عند حديثه عن الوشم بأن الحلية حلية عندما تلائم متقلدها، تماما مثل الأساور والعقد الذي تتحلين به، فهو يقدم عرضا ذاتيا لجسدك، واختيار المعصم والجيد، تماما كالأسماك السابحة التي وضعها الحرفي على حافة ركح لبدة تزين جيد المسرح.

ماذا تستطيع مدننا اليوم تقديمه للغد وخلق أفق للتصور عن كيفية عيشنا وعلاقاتنا ومعتقداتنا، عن فنوننا ونمط تفكيرنا، أرهقه السؤال وعذبه!!تذكر كيف استخدم مخزونه الثقافي والفني حتى يكون محور اهتمامها وتركيزها. جذبها بلطف وقدم لها فنجان قهوتها، ابتسمت ابتسامتها المعهودة، وقامت تلملم ما أفسده الليل استعداداً ليوم جديد

3

ذلك المساء جلست تتابع برامج التلفاز، عابثة لاهية بجهاز التحكم، توقفت عند برنامج يقدمه رجل متوسط في العمر يكثر من قول سبحان الله، ويقدم عديد الوصفات لدرء العين والسحر والحسد- ثلاثية تصنعها النساء أفقا ليومهن، ومشجبا لخيباتهن - وبين الحين والآخر تخرج إعلانات مدعومة لقارئ الكف وفلكيون يقرؤون الطالع، بل لنساء يلقبن بالشيخات، في إشهار مركز ودقيق، لتنهال عشرات الأسئلة، عن الجن وقدراتهم، وزيادة للإثارة يتعهد المذيع بعمليات يتم فيها إخراج العفاريت وعلى الهواء مباشرة.

رأت نفسها محسودة، وأن خللا قد أصاب بيتها الذي شيدته، من قصاصات الحب وعمرته بالآجر الأحمر خوفا من عيون الحاسدين، الكثيرون لا يعلمون أنه قد طلقها وابتعد ثم عاد إليها عاشقا متيما لكنه رفض أن يكمل أي إجراء للعودة.

حرمها بأيمان غلاظ وعلى رأي الفقهاء طلقها طلاقا بائنا بينونة كبرى، وهي ترى نفسها أن سوء بختها وطالعها السيئ هو من ينبغي معالجته والبدء به، فقد اجتمع عليهما كما تقول كيد كل ساحر ومشعوذ، وربما لم تعلن عن رغبتها أنها قد غدت في حاجة ماسة لخدماتهم، ترددت كثيرا كيف لها وهي المرأة المتعلمة التي تحمل الشهادات وتتحدث عن الثقافة والفن، وهي من أصول عائلية أنجب

بيتها العامر سلسلة من الشيوخ والفقهاء، لكن تجارب صويحباتها قد دقت جرسها المرعب الذي يشبه جرس كاتدرائية نوتردام الشهير، هل تحتاج أحدب يحميها إذا ما اتهمت يوما بالسحر، وتكون هي الغجرية التي تتلبث وسط أروقة كاتدرائيته العالية، بدأت الفكرة تتحول طنينا مفزعا يؤرق أذنها الوسطى الأمر الذي أفقدها التوازن وأكسب جسدها الاضطراب.

تلح عليها رغبة ذاتية ودافع جواني في أن تطرق باب المنجمين والعرافة، وهي تسمع كل يوم عن تراتيل وتمائم وشيوخ بلحى طويلة، وعن آخرين بربطات عنق أنيقة يمزجون الطب بالعرافة والدين بالخرافة، لم تعد الموضوعية التي كانت تنشدها بقادرة على دفع الذاتي داخلها، لقد ذهب ذلك التناغم بين الذاتي والموضوعي، تستشعر الواقع المرير الذي خضب أيامها بالخيبات، كيف لها أن تعود لواديها المليء بالخصب عبر جذور امتدت داخل صحراء تؤنسها.

أعادت حسابات يومها وماضيها، حيث لم يكن زواج أمها إلا غنيمة وشارة للسحر، علقتها الجدة في جيد ابنتها، هكذا تروي الجدة قصة غرام والدها وتعلقه بأمها، دورة من أدوار السحر، لطالما حاولت أمها القول بأن سحر جمالها هو الذي أسر والدها، بينما تصر الجدة أن ذهابها للفقيه هو السر الكبير حينها.

لم يكن سلامة جسدها إلا بفعل التصفيح، هكذا تتفاخر الأم وتتباهى أمامها، إنها حقا تعيش مسألة تعاقبية لفعل السحر، يعكسها المكان والزمان، هذه الأضرحة لعشرات الأولياء وآلاف المريدين يسعون خانعين، يقبلون الأيادي، وينفقون المال، وربما يجدون شيئا من طمأنينة البال وراحة النفس، ليس لي مطلب من دنياي إلا ساعة هدوء وسكينة أخرج من حولي مني، حتى هذه الكتب والدفاتر، ينبغي لها أن

تتركني وحيدة، سوف ألقي بكم بعيدا مساجين في زنزانتي، يأكلكن العثة والغبار.

تتراجع في تساؤل استنكاري، كيف لي أن أنفصل عمن حولي؟ إنني شديدة الالتصاق بهم جميعا، كيف لي أن أترك المهدي وحيدا فريدا شريدا، وهو مازال يبحث عن طريق.

هذا مجرد هراء، إنني ابنة المحيط من حولي، أنا وهو توأمان، جربت الانفصال وفشلت، ولن أحاول مرة أخرى!

حقا إنني تائه فذاتي الحائرة التي لا تكف عن الملاحظة في هذا الوجود من حولي، هل يمكن أن يصل بي الاندماج إلى الانغماس؟ وأن أحمل مصباح السحرة الكئيب والقميء، وأن أسير في سراديب تعلوها الرطوبة، وتؤنسها الخفافيش، هل كُتِب عَليَّ أن أكتب حروفي بدم نجس على رقع الجيف.

لن أفعل ما كانت تنكره ذاتي على ذاتي، ليس لي من مندوحة إلا البوح عن رحلتي في البحث عن حل لمشكلتي، لعبة الاندماج عبر منظومة الماضي، والقلق وفقدان الاستقرار، هل يمكنني بتر ماضي، وقتل تصورات الطفولة، والتمثلات التي عايشتها على لسان جدتي وعجائز القرية وجاراتي اللواتي دخلن اللعبة، وحفنات المر والجاوي الحلو والمر، والذكر والأنثى، وجاوي المثليين، والسحاقيات، كانت شاهدا على الأعطيات والمنح والهدايا التي تعود بها العرافات، وما يجلبه المريدون لقبر الولي، كيف لي أن أتعايش مع ذاتي، بنقل الصراع المتراكم داخلي كقطع المزن التي تتجمع في سمائي.

كيف لي أن أغض الطرف عن نساء وصبايا تظللهن الحيرة، ويقتلهن اليأس والظمأ، كيف يتحقق التواصل عبر همهمات ونشيج

وشكوى، ودموع ليغيرن أحوالهن، تصيبني الدهشة حينا مما يحدث، ومحاولة القبض على الملابسات وتفحصها.

مظاهر الحداثة والتقدم من جهة، ومن أخرى نرى مناطق تتعيش على البركة كما تصورها الذاكرة الشعبية، وأن أجيالا من المشعوذين تندثر لتحل أخرى، وكدا الزبائن الكثر تندثر أولى لتحل ثانية، لأكون ربما من الوارثين!

أشعر بالهزيمة النفسية، والحيرة تلفني، يذكيها قلقي، فلطالما كانت اللامبالاة هي ديدني تجاه هذا العالم، بل الحكم المسبق عليها وإقصاؤها من دائرة تفكيري.

4

في أفق الليلة الممتد عاد المهدي يتلكأ في مشيته يخاتل كثعلب مخادع، وجدها متلحفة، تترقب عبر بريق عينيها الواسعتين مقدمه، تقلب كتابا في الفيزياء، تلك الكتب التي كانت تمازج بين العلم والثقافة والأدب، وسط رسومات لأقمار تطلق وآليات إرسالها تتابع المقولات العلمية من نيوتن وقوانينه التي لم تعد قادرة على حل معضلات الكون وحركة السفن في الفضاء، كانت تستدرجني نحو إنشتاين ونسبيته، وأن ما نعيشه من حسابات وأرقام تستند في أغلبها إلى ثابت نحن من نصنعه، وأن تصورنا وفهمنا للأشياء يبقى رهين زمن عيشه، ذلك العامل الذي نسيه الرياضيون ومعهم الفلاسفة وأسقطوه من حساباتهم.

فجأة تحول حديثها إلى عالم الروحانيات وأثر السحرة، شعور انتابني حينها انها تبتعد عني آلاف الأميال وأنها غدت حبة رمل وسط كثبان المفازات، وأن أيادي آلاف السحرة المنهكين يتفرسون بعيونهم المستديرة وجفونهم التي سقطت أهدابها، يمضغون القات القادم من أسواق نواكشوط الرخيصة، رأيتهم يبصقون على جسدها الرخامي ، وهي تهيم بعفن أجسادهم، خلت أنني أتتبعها وهي تضع الخرق البالية على قبور أوليائها، تشعل شموعا أطفأتها عديد المرات في كل مرة أقمنا فيها مواسم للفرح، شموعها التي تتمايل وتتراقص، اليوم تحاول ياسمين أن تعيد وقدها من جديد بعيدا عن مرابض لهونا، ياسمين تغيب

وسط مسارب غابتي المفزعة، غابتي التي شرعت طرق دخولها، كنت أسمع صوتها صدى يشوش خريطتي البيولوجية التي أحاول رسمها، أثرا لكثير من إناث الغابة الموحشة، بعضها رسما يشوش الطريق وآخر يمنح الزاد، تائهان بين أعواد الغابة المتيبسة، وبرك مياه زرقاء ذابت فيها المعادن القلوية، العوم فيها يذيب اللحم والعظم، كلانا يقف على حافة برك الموت علينا أن نصنع من جدوع الأشجار المتيبسة قوارب بلاستيكية تحمي أجسادنا الذوبان والفناء، شموعها تسح دموعها الثقال في كوة عند المراقد، حينا تهطل مزاريب غيثها رذاذا يبلل خاطري، بين شموع أوقدتها ذات ليلة شتوية هكذا وبدون مقدمات، بدت أجسادنا عماليق تسد الجدار، وجهها يلتصق بي وجفونها الطوال بدت وهي تخفق على الجدار حبالا تجذبني نحو أفقها الممتد، كانت لوحاتها السريالية، غمام يطير بي بعيدا، اليوم في الركن شموع بيضاء غابت ألوانها وشحب لهبها، تستبقيها، لتتسلل عند الغسق تضعها على قبور مستقبلنا، لم تعد تدرك أن لهبها نار تتقد داخل جوفي، يغنيها عن آلاف الشموع.

بصوتها الرخيم والعذب شعرت أنها تقودني مرغما إلى عالم كنت أحسه داخلي ويرفض عقلي الاستجابة له.

كيف لها أن تحدثني عن انشغالها ببرامج السحر والشعوذة، وعن قصص كثيرة كان السحر بطلها، والمروجون من المشعوذين هم المنقذون ويد الرحمة، والخير، هكذا قالت وهي تنظر في الجانب الآخر من الغرفة، فهم أنها توجه حديثها إليه.

ـ ذكرتني بصديقي الذي غالبا ما يمارس دور الإغواء، فهو يقدم مادته في أسلوب استنكاري، حجاجي يحمل في طياته الإقناع، وأنا اليوم مضطر أن أعيد على مسمعك: إذا لم تكن لديك عقيدة في ما تفكرين وفي من تطلبين عونه، لن تكون هناك استجابة، هكذا يرددون

ويقولون، ينبغي تعطيل آليات الرفض، والاستعداد للقبول، وأراك قد بدأت الخطوة الأولى نحو عالم شائك مثير ومفزع ومخيف.

+ كيف لي أن أستجيب وأعتقد فيمن يمارس الشر ويحترفه، يفرق بين المرء وزوجه، مستعينا بالقوى الغيبية من عفاريت وشياطين؟ كيف لي أن ألقي ما تعلمت من يقيني بحرمة هذا الفعل؟ وأن لا قوة في الكون إلا قوة واحدة.

ـ لا عليك عزيزتي، ربما كنا يوما مسحورين دون أن ندري، ربما كان لقاؤنا سحرا ألم يتحدث الشعراء عن سحر العيون وسحر القول ونماذج شتى، ألم يقل القوم يوما لقد سحر المهدي على يد ياسمين.

+ ما زلت أملك تعاويذي وقدرتي على سحرك وفتنتك، ولربما استعنت بعفاريت الكون.

قهقه بصوت شجي يمزج بين الاستنكار والفرح، كونها لاتزال أنثى تنصب شباكها، عاد به الزمن عندما تلقته جنية من جنيات الأرض، وهو لايزال صبيا، حلق بعيدا في مرابع الطفولة، حيث الزوايا تملأ الفضاء، والعرافون والعرافات يأتون خلسة في غياب الرجال، بعضهن يرمين الودع، وآخرون يدَوِرُون البيض ويفقسونه، لتخرج من برزخ الحياة عيونا سوداء لا تخطيئها عيون المشاهدات، ليتخرصن ويحزرن لأي من الغريمات هي تلك العيون.

شاهد النسوة وسمعهن وهن يتواعدن على الذهاب لبيت العرافة، يشددن الرحال، في حين تملأ الهدايا حجورهن المربوطة على بطونهن، وتتربع الدنانير الورقية بىن أثدائهن.

لم يغب عن أذنيه ولا ذاكرته أصوات الدفوف والنغم المنسكب، وصيحات المريدين وهي تصدح في أمسيات المدينة، عندما تعلو الأناشيد وتفتر أخرى، يتغنون بالأولياء الصالحين ويتبركون بهم، مازال منظر الهائمين من الوجد وهم يتساقطون صرعى ومغمى عليهم، ليصنفهم كبار القوم أنهم ممسوسون وأن السحر الأسود قد تمكن منهم، ليتدخل العارفون، لتبدأ مسيرة الطواف بالممسوس فيوسعه المعالج ضربا ولكما وتعنيفا لعل الروح الشريرة تغادره.

تساءل في نفسه وهو يرى ما آل إليه حالهما هل سكنتنا أرواح لا نعرف كنهها، حتى صرت أسير وحيدا أحدث نفسي، وأختلق حوارات لم أكن بحاجة لشريك يشاركني، أم أن نبوءة أمي قد تحققت فطالما وصفتني بالجنون، أشعر حينا أنني صرت يد الشيطان التي يبطش بها، ماكنت أنا المهدي عندما طلقتها، وطردتها صاغرة، ثم تحايلت عليها لتعاود الحياة معي.

كيف لي أن أميز في داخلي بين نشج المزاريب عبر قراءات وأوراد، وبين لفح الهاجرة في أصوات الدفوف والمزامير ونقر الدرابك.

قال مخاطبا إياها ودون مقدمات، اليوم أتذكر صديقي البعيد عبر رسالته النصية، كان حجرا كبيرا وثقيلا يهوي من جبل عال ليصطدم بجسدي المنهك من رحلة الرجاء والانتظار، عندما قال دون مقدمات لم أعد أراك تهتم بالتطهر ورفع الحدث، شعرت أن ريحا غريبا تهب على جدران نفسي.

أشعر اليوم وأود أن أصارحك، وأشار إلى معصمه، ألا ترين أن يدي تتحرك في كل الاتجاهات، ولست أملك القوة لإيقافها، هناك شخص ما يطاردني، قد قالها لي ذلك المهاجر احدر القادم والمجهول،

قالها ومضى مغادرا، لم يترك لي فرصة السؤال والتعرف، ترك التحدير معلقا بين السماء والأرض، ينتظر هبوب الريح ، عشت وحيدا في صحرائي القاحلة، وكنتِ واحتي التي أستظل بها، لكنني كنت أخشى أن أسافر بعيدا لأجتاز المفازات، كانت الريح من حولي تعصف بي، وحبات الرمل تلطم جبهتي، أحاول توقيها، ولطالما وضعتك كمتراس أختبئ خلفه، دائما كنت أسير عكس الريح، هل حقا كنا نسير إلى الأمام؟

هل تعلمين ما قال لي ذلك الأفاق اللئيم: لست إلا غصن تلقيم، لست من الشجرة المباركة، طفيل تتغدى عليها، ولكنك تختلف، قالها الحقير وهو يتوارى مسرعا زارعا في كياني نار الشك والانتقام.

بدأت وكأنها تعيش عالما آخر وكأنها تلتقي المهدي أول مرة وتسمع حكايات للرعب والخوف واليأس، استمر يتهدج في لغته، لتخرج حشرجات متقطعة، تبدو همسا وحينا اعترافات لآثام لم يرتكبها، تابع قذف ما في جوفه عبر ذاكرته المثقلة، بدت حياته سطورا متباعدة، لم يعد قادرا على لجمها كان الفوران يجبره على تلقف خبث قِدره الصدئة، تذكر رحلته للأردن:

ـ الشيء نفسه عندما كنت أسير في شوارع عمان، وفجأة ظهرت لي إحدى نساء الغجر تحمل غصن نبات الإكليل، في كفها كما هي عادتهم، كانت تلاحقني تتوسل إلي أن تقرأ طالعي، وترسم مستقبلي من خلال خطوط كفي، من باب السخرية، مددت يدي تأملتها أعادت النظر حملقت وتحوقلت، تركتْها برهة، لتتلقف اليد اليسرى، استسلمتُ هذه المرة وبكل خنوع ورهبة وخوف.

ابتعَدَتْ قليلا وهي تتمتم، لم يكن هناك من بد، إلا ملاحقتها، لمعرفة الخطب والأمر، وهي تردد لا شيء، وزفرت واستدارت

مبتعدة عني، أسرعت الخطى لتتحول إلى مطاردة، تمكنت أخيرا من محاصرتها.

قالت: ما الذي تريد لقد قضي الأمر.

- أي أمر

× إنك نبتة غريبة في حقل الغرباء!!

لزاما علي أن أستوقفها وأن أستحلفها أن تقبل دعوتي، عيونها الغجرية تقول الكثير وتبطن أكثر مما تظهر، عندما جلست قبالتي في مقهى فلاديلفيا، كانت سعيدة وغير مصدقة، وقبل أن تقبل الدعوة، اختفت قليلا ثم عادت بهيئة لم أعهدها، وما كنت لأعرفها لو لم تناديني باسم بلدي، شعرت أن غيمة فجائية قد أمطرت ذات صباح قفر الأرض، لتجد الوديان قد امتلأت وردا وزهرا، حديقة كاملة هكذا تبدت، أي فتنة تحملنها بنات الغجر، قالت وهي تبتسم، حذاري أن أسرق قلبك أيها الغريب فنحن النّور مشهورون بالخطف السريع ونتفنن فيه، لكن يكمن داؤنا في أننا نسرق الأشياء التافهة، والأغرب أننا نحتفظ بها، تعال وزر قرانا ستجدها معرضا مفتوحا للخردة، وما زهد فيه القوم.

قلت ضاحكا وهل سيسمح لك قومك بإدخال غريب بينكم، فالمعروف أنكم شديدو الارتباط وكثيرو الغيرة على نسائكم.

قالت ولكننا شديدو الطمع أيضا.

كانت سعيدة جذلى، ثوبها الغجري الفضفاض، يبين عن جسدها النحيل، كانت وسطا بين البياض والسمرة، تأخذك أسنانها البيضاء إلى وهاد وسفوح سيبيريا، ثم لا تلبث ترتد، إلى غابات أفريقيا، عبر شعرها الأسود الفاحم، الذي تبدى كلوالب لا تنتهي إلا

لتبدأ غابة لولبية، تتشابك أطرافها، كم تمنيت حينها أن افككها على مهل وتؤدة.

قلت مداعبا، متى ستغادرين، لابد أنكم تعدون العدة للرحيل، ضحكت ضحكتها الآسرة التي لم تستطع إلا أن تكون غجرية حقيقية، نعم نحن نعشق الحرية ونقاسي من أجلها لا نؤمن بالحدود ولا نحترمها، نكره الوثائق والتعريفات التي تقيدنا، رأس مالنا في القديم حصان، وعربة واليوم شاحنة وبيت متنقل، أرواحنا منطلقة نعشق الغناء والرقص، والسرك، وقراءة الطالع.

ـ حسن طالعي هو من جعلني ألتقيك.

كان ليل عمان يمتد داخله، وغجريتي التي أخذتها النشوة والاغتباط، حتى أنها انطلقت تحكي لي عن سير أجدادها الأولين.

بزهو لمحت في عينيها النجوم العديدة المتناثرة على مرأى الله، شعب الغجر أو النَّور كما يحب أهل الشام تسميتهم، أو الكاولية عند بلاد الرافدين، وهم سيجان عند السلافيين وخيتانو، جيتانو عند اللاتين، وجيبسس عند السكسون، حتى اسمهم متغير متقلب ومتبدل، تماما كما عيشهم غير المستقر، اختلطت دماؤهم وأديانهم، لم تكن عينا غجريتي غير عيون إيرانية ناعسة، وشعرها الفاحم الطويل إلا امتدادا لأسلافها الهنود، وبشرتها المخملية، زادتها فتنة تلك المراهم التي دهنت جسدها وعطرته، يتخبى الجمال داخل الأسمال، كأن جسدها يعلن عن تمازج بشري عجيب، في رحلة البحث عن مستقر للشمس، ومد للظل، تناوب الغرباء على جداتها، تكاد في كل فرسخ من الأرض التي وصلتها أقدامهم يكتبون سفر ينطبع على أجسادهم، ويرسم جينات مستقبلهم، واصلو سيرهم المهلك والمضنى، كقطعان البقر الوحشي

والوعول التي تعبر النهر، وهي تعلم أن الخطر محيط ماحق، لا بد من السير إلى المنتهى، عندما امتطى جدهم الأكبر والكاهن الكبير متن السحاب معانقا الريح، ينشد الحرية، يودع قيد بلاد الهند وتحكم الرهبان والمعابد، وفسق الكهان.

في ليلة توسط البدر سماءها، وأشرق بنوره ومد شعاعه عبر بساط الأرض العطشى لقطرات الندى، كانت أسراب الحشرات تطن على مهاجع القوم، وتلسع بخراطيمها الدواب وتملأ الزرائب، الجياد تصهل وترفس بحذوتها الحديدية وعلى جدران إسطبلاتها المغطاة بنبات الخيزران وأعواد (القنب والبامبو... صياح الصبية وبكاء الصغار علا في أرض الآباء الأحرار، لم يعد جدنا الأكبر قادرا على سماع النواح والبكاء، وتصبير القوم، والوعد المقطوع برهانات الكذب، صاح في القوم وارتفع صوته وجسده عن أرض الخطايا والدنوب الأرض التي تطعم الصغار العلقم وتسقيهم الذل، وتجرعهم الخيبة، يقرح البؤس أجسادهم، وترتمي النساء مقهورات في أحضان الغرباء، ويبيعون فلذات أكبادهم، للقادرين من أبناء موطنهم، قال الكبير وهو يمسد لحيته الكثيفة، ويعتمر طاقية بلون آلام شعبه، وسترته التي بدت معرضا للألوان، كان الخاتم السحري يتبدى لامعا يتوسط كفه، وسوار فضي يلف معصمه، كانت خيوط القمر الذابلة تعكس شعاعا خفيفا سقط على المعدن البراق، عندما ارتقى الصخرة وشارف القوم، رأى شعبه المضطهد والمظلوم، صاح بصوته الجهور، صمت الكون من حوله، حتى الجراء و الجياد أصابها السكون ورهبة الصمت.

يا بني جلدتي ورحمي، لقد كتب في سفر الأولين ووصاياهم التي ربما تغافلنا عنها ونسيها الكثيرون، أن الأرض جميعها قد جعلت لنا موطنا، وأن الكون رهن أمرنا، نتبوأ من الأرض حيث نشاء، نحن

الذين نعشق الشمس والرمل والبحر والثلج، هدأ من ذاته، ولان صوته وهمس في آذان الفتيان، سنرحل نتبع الشمس ونسترشد بالحرية وننشد الخلاص، لن نتوقف إلا لنعاود المسير، سيروا في الأرض ولا تتوقفوا سندور مع الشمس ونتبع الفصول، كالطيور المهاجرة.

أيها الفتيان، وحفاظا على نسلنا العظيم، وعرقنا الأبي، أنه عند توسط الطريق، سنفترق في مشارق الأرض ومغاربها، سنحرر الإنسان من ربقة المكان، ولعنة الظعن وعبودية الاستقرار، ستلهمنا الموسيقى الطريق، ويخفف كدرنا الغناء، سنغني ونرقص عابرين المسافات، وإذا تعفف وتكبر المشاهدون، سنرقص مع حيواناتنا هجائنُنا التي سنربيها على الطاعة والالتزام.

قالت غجريتي وهي تغمز بعينها، وتلمح لما يمكن أن يكون بيننا في ليلة المسرة في عمان، واصلت حديثها، هكذا قال كبير القوم ورأس الحكمة، يشجعهم على الترحل:

لن تكونوا ضيوفا ثقالا على الآخرين الذين سيحسدونكم على نعمة الحرية، التي سنزرع فسائلها في كل خطوة نخطوها، لن نتوقف إلا لنبدأ السير، ألوان الثياب الزاهية ستشتت تفكيرهم وتحميكم من كل عين لامة، لوحة جدارية نستقيها من الوديان والوهاد والجبال التي نمر بها، التقطوا ثمار الأرض روضوا الدببة والأفاعي والقرود.

وقوف المودع على الربوة انحنى ونثر التراب على رؤوس القوم، من يعشق أمنا الأرض فليسر في مناكبها، يا بنات الغجر، بخصلاتكن التي تنسكب على أسيلكن، وشعركن الفاحم المنعم بالقرنفل والطيب، سيكون محط عنايتكن، وفيض أنوثتكن الدافقة، لتحرر صبايا الغجر مما يزعج أجسادهن الغضة الطرية، وليكن فضفاض الملابس رداءكن، حررن أجسادكن‘ فهي تكمل حرية شعبنا، ليكون المعدن

الثمين وصنوه زينتكن، ستبرق دمالجكن وأقراطكن تحت شعاع الشمس يكمل مشهد الزينة والعطاء، طوبى للرجال الذين يعشقون كثرة الألوان وتمازجها يزخرفون أثوابهم، وتحت خواتمهم الغليظة والمفلطحة يختفي سرهم الأكبر.

قال بصوت متهدج الكون ليس إلا خيمة وعربة وحصان، زينوها واعتنوا بها، لنتذكر جدنا العاشق الولهان الذي أحب فتاته وأخلص لها، كانت تحلم بعربة مزينة وثوب مورد، لم يمهلها الردى كثيرا، غادرت بعد أن أنهكها السقام، وأذبل جفونها، كانت نبتة تتآكل أمام ناظريه، لم يعد ينفعها سقي دمعه المدرار، كتب في اللوح المسطور، أن الزوج يصير مفردا، بكاها كما لم تبك حمامة بطن واد وِلْفَها، كان أكثر صدقا منها فهي تهجع الليل وهو واصله، رسم وجهان على عشه الذي غادرته، لرجل شديد السمرة داكن الوجه، وفتاة ذات شعر أحمر، لم يكن الوجهان، إلا هو وهي، يمثل العذاب الذي أضناه وأرقه، وحمرة الحياة التي تنبض بها فتاته، ومن يومها نزُف العرائس لعربات نزينها بالورود وبالوجوه، ونترك ربعها للمرأة تقيم فيها عالمها، وفتحة تتوسطها تطل بها على السماء الدنيا وتنفث دخان نار الحياة، المتدفقة مع كل إعلان للخصب وكل دورة لعجلة الحياة.

لا يدري كيف مر طيف ياسمين على خاطره وهي تحكي له حكاية جدها العاشق، هل أستطيع أن أرسم وجهين لعاشقين، وأن أسافر بحثا عنهما في العالم السرمدي، وأن أورث من بعدي لعنة العشق وعذاب الفراق.

تمايلت غجريتي طربا، وبدا جسدها الرخو والمطواع، تتناغم مع وقع الطبول، ودبكة فاجأت المكان، وأصوات وقع الأحدية في دفقات من الإيقاع المترافق والمنظم، هي جوقة بكاملها، إيقاعها مختلف، على رؤوس الأصابع تتحرك كفتاة سرك مدربة، كانت

تنورتها الواسعة، تدور وفق دورتها، لترتفع قليلا تعلن، عن سيقان من المرمر، لتجذبها في حركة لولبية رافعة بها إلى الأعلى في لحظة خاطفة، كبرق خاطف يتبدى فخداها، لتعود من جديد تتمشى كقطاة في برية مفتوحة، تتحاشى عيون الشاهين، وتتوارى عن مقل الذئاب، تتقدم حتى خالها أن صدرها المكتنز سيطوي وجهه المندهش بين جيبيها، ثم تتراجع كبجعة يبللها ماء البحيرة الصاخب.

أعادت عبر ذاكرتها يوم كانت ترقص وترقص، صبية شاردة بنهدين لم يستويا بعد، وجدائل على هيئة قرون تنسكب على جيد غزلاني، اليوم هي ترقص حرة طليقة، لا يشاركها إلا وجدها وفنها، يومها رقص الفتى الغجري، قفز مرات ومرات في الهواء كأن إعصارا يرمي به كلولب، يدور ويدور، أثوابه المزركشة جعلت منه طائرا حط من أدغال الغابات وتنزل عند قدميها، يمد لها يدا ويرغمها على الالتفاف والدوران، تناغم الجسدان، كانت ذراعه تمتد حينا ويطويها أخرى يباعدها ثم يعيدها لتلتصق بصدره من جديد، كان زمبركا في حركته، وكانت هي الكرة التي يقذفها ويعيدها من جديد، سحرها خبط قدميه على الأرض، لم تشعر إلا والفتى يمد لها لفافة عنقه (شاله) المورد قبلت الصبية، لتعلو الصيحات والزغاريد، ليعلن عن رباط أبدي ودورة جديدة للحياة، قطرات الدم المسفوح من إبهاميهما النازفين تنسكب على قطع الخبز، قطرة فقطرة هي الدماء، في تؤدة ورهبة، هي الدماء بلونها القاني، كان دمه أسود خاثرا بينما انسكب دمها شفافا موردا، كانت دماؤه شؤبوبا يتهاطل بينما هطلت قطراتها كحبات ندى، تبلل قطع الخبز، في البدء كانت بقعا متباعدة تبدو كواحات على كف الصحراء، تشرّب الخبز الدم وتوزعه صبغه الأحمر، قرب الفتى الدم من أنفه، وقضم من الدم المراق من جدوليهما يعلن التوحد الأبدي بين جسديهما، قربه من فيها والتقمت منه نصيبا معلوما، تكفلت العجائز بباقي الخبز الدامي والمعجون بسائل الحياة،

نثرن ما تبقى منه على رأسيهما، شعرا بأن طعم الدم والخبز قد أذكى نار العشق والارتباط، وأن الدماء سوف تسقي خبزهما وتصنعه، وأن لذيذ العيش يحتاج العطاء، حتى لو كان دما ينز من العروق وأن البركة قد حلت بهما، وأن جسدها الفائر، اللاهب، سوف تطفيه قطرات الوعد وتذكيه.

حطت بقربه على كرسيها كطير مسافر عبر البحار والمحيطات، تلمع حبات العرق على جيدها وتنسكب في تؤدة منزلقة على الصدر النافر، إذ إنها طوحت بعيد بشالها الكبير الذي كان يخبئ الحسن تحت طياته، ويتحول إلى نطاق ينبسط على ردفيها مشكلا استدارة فاتنة، وعقدة أمامية توسطت جسدها المريب والمسكر، صفق لها انحنت عليه، وهي ضاحكة جذلى نسيت الكون ونسي هو ما كان فيه من قلق وما الذي دعاه لرفقتها، كانت الأكواب والصحون حبلى بالأطايب التي رغبت، وتمنت، إذ تحرك داخلها أشعبها، وترك لها المضيف أن يمارس دوره.

ـ تبدين غزالة شاردة، تقفزين ورأسك الرفيع بدا جليلا فيه تكبر الملكات وجلال الأباطرة، كانت ومضات عُريك خاطفة، لم يستطع جمهور المشاهدين تثبيت رسمك في أذهانهم، ضحكت ضحكة ماكرة، هي تلك لعبة الأنثى، ألا تتُوق وترغب الآن في أن أتعرى على مهل، وتتأمل صورتي وترسمها، أيها الأفريقي الجائع؟

بين الحضور كان ثلة من الصغار يحملون سلال من ورد يرمونها على رؤوس الحضور شاكستهم وألقت في آذانهم قولا، ليهطل من سماء أكفهم مجتمعين سيلا من الورود على جسدها الطري، اختلطت ورود الحفل وزهور الغجرية التي تملأ تنورتها، وتزين الأزهار البرية المطرزة نطاقها الذي لم يغادر بعد وسطها، قال في

نفسه هل استنبتت شيطانا داخلها ينثر الفتنة، ويخلب القلوب ويجدب المعجبين.

شده جمهور الصبية، وأصوات المحتفلين، جفلت غجريته، بعيدا تهرول في هضاب البوسنة والهرسك، وتسير حافية في سهول الصرب، تلقم وليدها ثديها، بعد حمل كسائر بنات جنسها تسعة كاملة، لم تكن كباقي إناث الأرض، كان حملها رجسا في عيون قومها، ما إن انقطع الطمث، وعَلِم سيدها وبعلها، حتى أعد لها خيمة منعزلة منفصلة، ترقب السماء، وتنتظر، كان بطنها يتكور وينتفخ، والقوم يزدادون جفاءً وبعدا، ترى من بعيد خيلهم ورجلهم، كم من عربات و خيام قد حرقت إيذانا بموت أحدهم، ترقب من بعيد الرجال الأشداء وهم يحرسون الموتى ثلاثة أيام متتالية حتى تسكن روح الفقيد، وتيأس الأرواح الشريرة، ويأمن القوم عدم تسربها إلى الجسد المسجى، عندها يرشونه بالعطر والكافور، ويلبسونه أفخر الثياب ولا بأس من بعض الحلي، فوضاهم لم تكن إلا رجسا ينبغي تجنبه والابتعاد عنه، ساعات المخاض والطلق ووجع الميلاد، كانت وحيدة تحت شجرة الرجاء، تنتظر صرخة وليدها، تهب له الحياة، ويهب لها العودة للجماعة، وإعلان تطهرها، كانت مثل جداتها العظام، تمنح الحياة وحيدة مفردة.

قالت وهي تتمتم وكأنه كان يسمع مونولوجها، إيه ياصديقي الأفريقي، صدقني كنا نعبر الكون غير آبهين بوصايا جدنا الأكبر، الذي لم يكن ضربه في الأرض إلا عقاباً، لم تكن تعاليم جدنا إلا كذبا وافتراءً، نحاول صنع تاريخنا، تماما كباقي شعوب الأرض، نصنع الكذبة ونصدقها، ثم نرويها لأحفادنا لتتحول حقيقة وتكتسي ثوب القداسة والطهارة، لم يكن سيرنا في الأرض إلا عقابا ونكالا، لأحفاد ذلك الجد اللاعب اللاهي العابث السكير، الذي أسرف في خمره ومن فرط الثمالة، دق مسمارا في المعبد يريد أن يقوضه، من ذلك اليوم

كُتِبَ في سفر الراحلين، يطوي هو وعقبه الأرض والمسافات، صيح به من ذات الأدرع المتحركة لتقذف بجدنا الشقي والبائس، وتقلبه شمالا ويمينا، وتقذف به ككرة تتدحرج على أديم الأرض، من يومها ونحن في سير أبدي، لن يدق إسفينا في الأرض إلا وأَقتُلِع، وهكذا ... يبيع جواده كلما جاع، وافتقد النقود، لم يترك له من متاع الدنيا وليس لنا إلا أن نواصل الرقص، ونجأر بالغناء، وكلما استقر بنا المقام تأتي أقوام تجبرنا على الرحيل، وترغم إناثنا على دورات متتالية من الهجر، ومن لباس الرجس مرغمات.

ورث الغجر ـ أو هكذا يظنون ـ خطايا جدهم الأكبر ونزقه، بقى الرجل سيدا مختالا وسكيرا عربيدا يأنف العمل ويزدريه، النساء يحبلن ويرضعن ويعملن، سمعها تترنم بأغنية وهي تسخر من قومها:

"أنا ابنة الريح والشمس

قدري هو الرحيل الدائم

والحزن الأبدي مكتوب على جبيني

أمي الريح لا تستقر في مكان، تحملني معها

وأمي الشمس تشرق على كل بقعة في العالم القصي"

نظر إليها لم يبق لها من ميراث جدتها إلا الملابس الفضفاضة، والرقص والغناء، ولم يعد نبدها وقت حملها، إلا نبد القوم الذين مرت بهم وازدروها، ظلت ترقص من مشرق الشمس إلى مغربها، تودعها لتعاود استقبالها ، ترقص للريح وتغازل القمر، وتلهيه حتى تباغته الشمس من جديد، مرغمة تسير بأسمالها ولا تتوقف وتتصنع الفاقة ، كتب عليها أن تخفي جسدها الفاتن تحت ثيابها الواسعة، وأن تخفي وجهها الأخاذ برخيص المساحيق والخلطات،

بعيدا عن أعين الراغبين والمشتهين، أصنع الفخاخ، لأكتفي بصيدي ، ولو كان لقاء عابرا في مقهى وملهى، لرغبات مسافرة عبر أفق الريح والشمس والقمر، أخفي هويتي واسمي كما فعلت أمي قبل ألف عام، عندما همست باسمها السري لمرة واحدة تـاهت الأرواح العابثة وضُللت فقدتُ اسمي وفقدت جموعنا أسماءها، وساروا تائهين في أرض الله بلا اسم يميزهم، لم تكن أسماؤنا الحقيقية التي غيبتها الجدات والتي تملك قوة خارقة بقادرة على الفعل، إلا داخل كينوناتنا المنعزلة والباردة، حيث الريح تغرد من بين خرق الخيام، ومزق الصفيح.

عند الربوة العالية همست الأمهات للصبيان والصبايا وهن يتلحفن بنطوع الكباش ويخفين وجوههن بأقنعة الذئاب والدببة، همسن بأسماء الفتيان والفتيات الذين تخلقت داخلهم بدرة الحياة، وتفجرت أجسادهم وتغطت بحشائش الجسد، وكمآت الصدور، تعلن عن بعث جديد يتخفى تحت أديم الأجساد وبين جيوب الجسد وثنايا القدر، أسماء سوف تكون إشارة لدخان يتقد خلفا لأسماء خفية ترقد في مراقد الأجداد، تعلن عن ولادة أخرى، واكتمال دورة الخصب.

في البراري الموحشة، حيث عواء الذئاب يتجاوب مع أركان الوادي، وخشخشة الثعابين، تتسمر البهم وترتجف، تفر أسراب الدجاج مرتعدة، وتركض النساء خلفها غير مباليات بمخاطر الفضاء من حولهن، يهدهدن المهود الممتلئة بالفزع والصراخ، ويتفجر اللبن من أثدائهن، يلقمن الصغار دون تمييز، من تمتلئ تدياها وتتورم حلمتاها، تلقفه لأول فم مشقوق ينتظر.

لم تكن إلا الجياد تقطع المسافات لا تبالي، تقف على قوائمها الخلفية وتركل مصادر الخطر، تتبعها الكلاب في جوقاتها، ودورانها حول العربات والخيام، تحرك أذيالها، وتلهث ولا تتوقف، وتفتك بالضواري من الأفاعي، الحصان ذاك المخلوق السحري الذي خلب

أفئدة الرجال، وتشبهت النساء بإناث الخيل، كثيرا ماكن يرسلن شعورهن على هيئة ذيل الفرس، وأخرى نواصي معقودة، كنا يتعشقن أن يكون فرسانهم جيادا برية، وأن يكن أفراسا تعتليها قامات الرجال الخيول، عندما تتهامس النساء في الصباحات عن خيول قد أبلت بلاء حسنا، في مضمار اللذة وسباقات الشهوة. عند المسغبة والجوع لا يجد الرجال غير جيادهم يعقرونها كالنوق، لتستمر دورة الحياة.

عشق الشمس والقمر والضباب عشق لبنات الأرض اللائي أفسد الزمن صحبتهن، ودب الخلاف بينها، فتفرقت، كما تترك الصبايا بيت العائلة، ويهجرن آبائهن وأمهاتهن، يتبعن شمس الذكور وريحه.

غجريتي تقول، سأحدثك عن أخبار جداتي عندما كان عزف الكمان خفيفا ولطيفا في ليل عمان الندي، تذكرت تلك الصبية العاشقة من بنات الغجر (مارا) الفاتنة التي وقعت أسيرة حب لغريب، تغنجت وتدللت، سارت وحيدة نحو شعاع الشمس ، وتسللت مع خيوط القمر، لكن الغريب لم يثره إغراؤها، فكر شيطانها في حيلة، وأغراها بأن صنعت من جسد أبيها صندوقا مجوفا، ومن أمها قوسا، ومن إخوتها الأربعة أوتارا، صدح النغم عاليا، وارتفع في سماء الغابة، لتفر الحيوانات من حولها بعد لقاء الجسدين، وترتفع بعيدا في مملكة الشيطان، بقى المكان وحيدا في غابة الزمن، الفقراء وحدهم من يرتادون الغابات، ويلتقطون الثمار، قدر المعوز أن يكون الكمان بين يديه، عزف كثيرا وبكى كثيرا ، وضحك كثيرا، سار الغجري وحيدا شريدا يرافقه كمانه يعزف لحنه ويغني:

"لم أعرف أبي يوما، وليس لي خليل

ماتت الأم منذ زمن، وغادرتني الحبيبة غاضبة

ليس لي في الكون سواك من رفيق أيها الكمان"

رددت بصوت مسموع وكأن مسا أصابها:

أرقص قليلا يا مارتن، هيا ارقص يا مارتن هيا

في عالمها البعيد تمددت الغجرية وهي تئن تحت أقدام الدببة الأليفة، علها تشفى مما علق بها من ماضيها، ضمت حيوانها الطوطمي، تمتمت وتمنت أن تكون جدتها التي حملت دون علاقة ولقاء للأجساد، وفكرت مثلها أن تغوص في بحيرة اليأس، وأن تخرج من رحم الماء وتعلن ولادة دبب كثيرة تعتني بهم وتعلمهم الرقص وفنون العرض.

رددت: هيا أرقص يا مارتن، استدارت تطلب مزيدا من الشراب، وهي تمتم، سيلتقي الماء والنار، ونرتدي ثوب الحقيقة، توغل الليل في ذاته، ونحن نسير الخبب بين زرائب الغجر، مقصورة سحرية، تتأرجح في أفق بين خيوط القمر شعرت بجسدها الطري وأنفاسها الحرة، رقصت كما ترقص الدببة، قطعنا المسافات والوهاد، لم يستطع اللجام أن يوقف فرسا مندفعا، كان عليه أن يعتلي ظهر المهرة، ويعاود السباق، كانت أنفاسها الحرة، وصهيلها يملأ جوف الليل البهيم، تنفس الصبح عن وجه الشمس المحرقة، سارت العربة تتبع حركتها، شاهد أعمدة الدخان وهي تتصاعد بينما تهادت العربة في سيرها الأبدي نحو مرقد الشمس، ومخبأ القمر، تذكر كلماتها المكتنزة.

سأكون هذه الليلة غجرية تجلت بمجوهراتها الذهبية، وأغطية الرأس تزينها النقود المعدنية، قالت وهي تبتسم، لن آخذ منك نقودا، سأهبك ليلة وأتصدق بها عليك.

تبدت ملكة متوجة مترفة، لا ينقصها إلا الوصيفات يمزجن الكافور، والعطر ويسكبنه على جسدها الذي يبين تحت شفيف الثوب،

كان بستانها وجسدها ترفا إلى حد البذخ، همست في أذنه إنها تحلم بعرس غجري، وبفض بكارتها من جديد، عرس بحجم الكون

My big fat Gypsy wedding

هل ستأتي أيها الغريب ونرحل معا في قافلة يلفها الضباب، ستكون أنت الأمير ولن أكون إلا المرأة المسنة (باهوري داي Pahuri dai) التي تعتني بالأطفال والنساء.

ياسمين تراقب شروده، عرفت بحس الأنثى، أن دربا بعيدا يسلكه المهدي، مبتعدا في سراديب جبلية، وأنه يفتش بقايا قواريره البائدة، يتشممها ويلعقها بنهم كقط بري، يقلب علب السردين المتفسخة، يدحرجها متلذذا يمسح بقايا ولائمه. ربت فوق ظهرها متظاهرا بالاهتمام، ثم فجأة فاجأها، غدا لا تنتظريني، وربما أسبوعا كاملا، سأغيب في مهمة وعمل.

أطفأت النور وشعرت أن برزخا يفصلهما، وأن كليهما لا يقدر على البغي، ولا يستطيعه، كان بحرها هادئا رقراقا منسابا كشعر غجريته، بينما كان يسير نحو بحر الظلمات، يرافقه البحارة الماكرون وقاطعو الطريق الآفاقون.

5

مع بزوغ الفجر كانت قد أعدت ما يحتاجه المسافر ورتبته، وحيث أنه لم يفصح عن طبيعة الرحلة ولا الوجهة، ومن سيقابل، فقد احتاطت لكل محتمل، وضعت له البدل الرسمية، أو كما تحب أن تسميها (المدنية) كما اللباس التقليدي، ولم تنس أن تدخل في حقيبة صغيرة كل لوازم الاعتناء بالمظهر، أدوات الحلاقة والعطور التي غالبا ما تختارها له.

في انتظار رفيق رحلته وصاحب النصائح والمجرب في فنون الروح، والذي لاحظ شرود صاحبه وقلقه، كان يدعوه دائما إلى رحلة علاجية سياحية، ولطالما سخر المهدي منه ووبخه على اعتقاداته وربما سذاجته المفرطة، كان عبدالله يضحك ويخبئ حسرة داخله كون صاحبه لا يؤمن بالقدرات الخفية، مما يجعله عرضة للهواجس والقلق، لكنه اليوم يقبل مستسلما مهزوما في داخله، وإن كان ظاهرا يعدها رحلة استكشاف وتسلية.

هبت نسمة صباحية عليلة، وهو يحتسي قدح القهوة في الفناء، في وقت يتصارع فيه بقايا الليل الهارب من سياط النور، الذي بدأ يتشكل على هيئة هالة ضوئية من جهة الشرق، راقب الضياء وهو تعلو، وترتفع، كوادٍ يفيض ماؤه ويرتفع، في البدء كان دفقا على استحياء تندفع كرات النور، تقسم ظهر الظلام، رأى فيالق الدجى تنهزم منكسرة، ويفصح الكون المعتم عن هويته، سعف النخيل

ورؤوسه العديدة، التي تحيط مسكنه، بدت كعماليق تخرج من كهوفها، واقفة بلا حراك، كحرس المعابد الأقوياء، تجبرهم أجسادهم الضخمة على أن يكونوا بارزين للعيان، حتى لو اختبأوا خلف العمائر والخرابات، قرص الشمس اللين بشعاعه المنسكب كشلال في عالم الرؤيا، تتدلى عناقيده الزمردية، تلون صباحات الكون.

كان كونا بذاته ليله المؤرق، لم تستطع شمس الصباح أن تعري ما بداخله، ها هو يتجاهل نداء النور والضياء، ويستمر في لعبة الظلام، ليس ما ينتابني إلا أوهاما ينبغي لي التخلص منها، علي أن أدرك أن واقعي الذي أعيشه هو الذي أقفل نور البصيرة وأبعدني عن معرفة ذاتي، هل يستطيع عبدالله والمريدين الذين نرتحل إليهم أن يجيبوا عن الأسئلة التي تفزعني، ومارست دور الإرباك على كياني، ووصل بي حد القلق، لم يكن ترددي على مسجد القرية إلا هروبا من كتل السحب التي تغلف روحي، والرعود التي تفاجئني كل حين بأصواتها الغليظة والمزعجة، لم يكن اليقين الذي أبحث عنه، إلا ليلا لم تستطع شموس الكون أن تبيد فيالقه، كنت أسير مع الليل وأتبع دهاليزه، أسافر مبتعدا عن قرص النور السماوي.

الخوف المزمن سيرٌ نحو المجهول والغامض، لم يكن دخولك المسجد إلا خوفا، والمسجد والخوف لا يلتقيان، هكذا قالها الدرويش، وأنت تهم بالدخول، جسدك يبحث عن الطمأنينة والسكينة، بينما قلبك يسكن الغيران والكهوف، تماما كوطواط لعين، يقتات على دماء ضحاياه.

آه من تلك القوة التي تعصف بي والتي تأخذني نحو الشك وتبعدني عن اليقين، عندما يلقي السحرة ماهم ملقون، أشعر بلغة البدء الغامضة التي أفتقدها اليوم، لغة البدء الأول، الدعاء البدئي، عندما يحاول المشعوذون تركيب جملهم ويصيغون حروفهم، كثيرا ما أراها

تنتج مفعولا لا يخيب، على الأقل هذا ما يعتقده عبدالله، ويؤمن به، الأمر الذي جعله أكثر اطمئنانا واستقرار، وربما نجاحا.

السير في الصحراء الموحشة المقفرة، وحيدا أسمع حفيف الريح من حولي، ومخلوقات غريبة ترسم جدارياتها المهلكة، تخط خرائطها على الأديم علامات، الأديم الرملي، الذي لا يترك فرصة لتبين حقيقتها، سرعان ما تختفي العلامات تحت حبات الرمل المتهاطلة من سمائي، أشعر أنني أتبع خط سير متعرج، رسمته زواحف الخلاء وجحور الضواري، أسمع جلجلة أجراسها المهلكة، أحاذر أن تنهش الهوام القدم، اشعر بقطرات السم المتدفق من أنيابها الحادة القاسية، تصيبني بالغثيان، وتتضبب الرؤية، الألم يسري في مفاصلي وتخر قواي، في أحيان كثيرة أتسمر لوحا خشبيا غير قادر على الحركة، كانت مسامير ياسمين هي التي أعلق عليها يومي وحركتي، لم يعد جسدي يحتمل، صرت معرضا لمسامير كثر تتحول بعضها خوازيق، تتخلل أحشائي، وترفعني معلقا في الفضاء تخترق جسدي على مهل، وأنا أتعذب وأتلوى، يعتقد المراقبون أنني أرقص كان ارتفاعي الوهمي فوق الرؤوس، مشهدا مفزعا، قطرات الدم الفاسد تلوث عالمي، ليتك يا يسمين، تستطيعين استلال الخناجر التي تفتت أحشائي، الظمأ يذبل شفتاي وييبس الريق، الزواحف والعقارب تنهش جسدي، حلقات الغموض والعالم اللامرئي يتمثل لي أفقا ليغدو مصدر إلهامي.

هل ما يحدث اليوم لي مجرد صدفة، أم أن قوة خفية دائمة المشاكسة هي التي تفزعني الآن وترعبني، قوة لا أستطيع إدراكها ولا أملك الكلمات لوصفها، لكنني صرت أؤمن بوجودها، هل غدا الوهم لدي كائنا ماثلا، وعدت لسيرة أجدادي الغابرين الذين لم يكن في مكنتهم الفصل بين المحسوس والعالم الآخر المتخفي، قد أكون مؤمنا

بالعلاقة القائمة بين العالمين، وأن العالم المستتر قد يكون أشد قدرة على التحكم فينا، إنها ترهبنا لتؤثر فينا.

صارت الخرائب التي أمر عليها أكثر حياة، أسمع الأصوات المتدفقة والعالية من داخلها، وأفهم ما تقول، أراقب حركاتها، وأتوقاها غالبا بالذكر الصامت، لن يصدقني الكثيرون، لقد رأيتهم رؤيا العين قصيرو القامة أصابع أيديهم لم تكن خمسا على ما أعتقد كانت سبعة بعدد السماوات والأراضي، وعدد أيام الأسبوع، ليس لي من فكاك ومهرب، مسبحة اليوم وتعاقبه، تشير عبر أصابعهم السبعة، قد يكون وغز الأصابع يختلف من يوم إلى آخر، لكنها على كل الأحوال تخترق كياني وتشوش ذاكرتي، إنهم يقفزون ويتحركون من مكان إلى آخر، يتحولون في صورة سريعة وغريبة، لقد رأيتهم نسورا تجوب الفضاء، وسنانير تلتهم الجرذان، وكباشا تنطح مربيها، ونيازك تسقط من سماء عالية، محاط بهم في الليالي المدلهمة، كانت عيونهم تلمع في الظلام، أتسمر في مكاني، أسرع نحو الجبانة. ألتمس الهدوء وأرغب السكينة.

أعود ادراجي أقلب أدراجي، وأخرج أسفاري علني أداوي دائي بالذي هو دائي. كثيرا ما كانت ياسمين، تبعد الهواجس، تبسط كفها تحاول إخراجي من السرداب الطويل والمظلم، لم تكن (روى) كبير السحرة عند الفراعنة، ولم تكن عرافة معبدي الآيل للسقوط، كانت المسك والعنبر الذي يحترق وسط اللهيب الذي أشعلته مرغما.

لم تكن رحلاتك للخارج إلا ترويحا وهروبا، شيء ما يقودك إليهم دون دراية ولا تخطيط، على شط الإسكندرية المزدحم، كانت أجساد المصريات تتبختر، على الرمال، وعيون كليوباترا تحاصرك من كل جانب، وعطرها السحري يتخلل المكان، كانت أجسادهن المتوشحة بالسمرة، والجهد المبذول في تغريب سحناتهن، يضفي على المشهد طابعا ساخرا وغريبا في آن فأجساد داكنة بنية ركبت عليها

رؤوس أوربية بصبغات الأشقر والحني، الذي يأخذك بعيدا إلى جبال الألب، ويتجول بك في البلاد الواطئة، كانت الإسكندرية بكورنيشها الذي لا ينتهي، وجموع البشر التي تذكرك بيوم الحشر.

لم يكن يومك في المدينة يختلف عن ولوجك لأحدى مكتظات الشرق، صوت المنبهات، والباعة على الشاطئ يحاصرك، ويسبب نوعا من القلق يصل حد الغثيان، لم يكن موعدك المضروب مع شلبي إلا نوعا من الترويح والتغيير.

سيارة الأجرة تطوي الطريق، بعد أن تجاوزت ازدحام المدينة، مرت بجانب البحيرة، حيث الصيادون، يرمون شباكهم، وأكواخهم الممتلئة بالصبية، والنساء تغسل ملابسها على شواطئ راكدة منتنة، انحرفت السيارة يمينا باتجاه الطريق الصحراوي، كانت الشمس تودع يوما، متعبا قاسيا على الكثيرين، بدت الاستراحات والمقاهي على طول الطريق، تلوح للعابرين، بأضواء مصابيح النيون العديدة والملونة، مهرجان دائم، ورجال ونساء يعرضون بضائعهم، ويلحون عليك في الشراء.

في طريق ترابي، سلكت العربة طريقها، صرت أسمع صرير العجلات وهي تلامس الأرض الخشنة رغم الصوت المرتفع لشلبي الذي لم يكف عن الحديث ولم يمل، عن فتوات لأبناء قريته، وعن تفوق أبناء عمومته وتبوئهم أعلى المناصب في أجهزة الدولة، ما إن اقتربت السيارة من بوابة حديدية وسط سور مرتفع، حتى أطلق العنان لمنبه، انفتح الباب الأعظم، واندفعت السيارة داخل المكان، كانت كلاب الحراسة، تهرول مسرعة تحيط بنا من كل اتجاه، صوت نباحها كان شديدا وعاليا تشعرك بالرهبة والخوف، وفجأة عادت الكلاب أدراجها ولف المكان صمت يشبه صمت القبور، المبنى الذي يشبه قلعة قديمة أو كما يتراءى في الأفلام المصرية القديمة لبيوت العمد في العزب

وفي الأرياف، درجات السلم المضاءة تقودك إلى شرفة فسيحة يتقدم شلبي وأتبعه كان صامتا حد الريبة، لم يعد ذلك المهرج المهذار، في الممر الطويل كانت الأضواء شاحبة لمصابيح ثبتت على الجدران، ترسل شعاعها الخافت، أسمع وقع أقدامنا، وأنفاسنا، يد تمتد برفق تقودني وتنحرف نحو بهو كبير، إلى اليسار، خيل إلي أن آلاف الشموع الملتهبة ترسل نورها على المكان، وعاء كبير يتوسط القوم ملئ بالماء الصافي، عندها تراءى لي أنني رأيت بقعة طافحة من الزيت على سطح الماء، تعكس لهب الشمع، كان الصوت يسأل والزيت يجيب، بل إن بقع النار المنعكسة هي التي ترد.

لم يكن المشهد إلا صك مودة من شلبي الذي عبرت له عن ضيقي وبرمي وما أعانيه من عذاب نفسي، فما كان منه إلا أن يفاجئني باصطحاب إلى جلسات روحية، كانت لتحضير الأرواح على طريقة الفراعنة.

همست له وقلت إنك تخيفني وترعبني، وجعلتني ألوم نفسي على الحديث معك أو الجلوس، سوف تجعل مني رجلا يسبح في عالم يبعد ذاتي عني، وأفقد الأمل في من حولي، هل تريدني اليوم أن أخاطب أمي في هذا المحفل المريب، أمي التي غاب طيفها عني، ولم أعد أستشعر، نفَسَها، ولا أتذكر صدى صوتها البعيد، ليس لي في أحد من الهالكين رغبة في الحديث معه، هل تريدني أن أصدق أن باستطاعتي أن أكلم الغابرين، الذين أحببتهم لم يغادروني يوما ولست بحاجة، أن أستعيدهم وسط طقوس سحرية وصمت مطبق إلا أصوات لا أعرف مصدرها ولا آلية توليدها.

كانت السيارة وعبدالله، نقطع وادي الهيرة ونرتفع مع بوغيلان، عبر طريق يتلوى كلما ارتفع، كانت البيوت تتضاءل، سريعا مررنا بآلاف من آنيات الفخار المرصوفة على الطريق، بعضها يتوسد

التراب وأخرى تتربع المصاطب الحديدية والخشبية، كانت أباريق وأكواب وصحون، وجرار... معرض للطين المحروق والصلصال المتيبس القابل للكسر، شقف الأواني والأباريق المهشمة تملأ أرضيات المعارض المفتوحة، تجاوزنا المدينة، وبعضا من القرى، وبدأ الملل يتسرب داخل نفسي، بدأ شكل الأرض وغطاؤها النباتي يتغير، انحرف بنا جنوبا، عبر الطرق الزراعية، أشار إلى الأفق البعيد، وإلى مجموعة من المساكن بدت كعلامات بيضاء نبتت على أرض قاحلة جرداء، شبابيك البيوت تبدو صررا خضراء ووشما يزين الأرض المصفرة، تعانق الأفق مع زرقة السماء، رسمت لوحة بائسة، استمدت بؤسها من حملي الثقيل الذي كلفني قطع المسافات وطي الفراسخ بحثا عن الطمأنينة وطلبا لعون العارفين، السكينة التي تنشدها روحي المتعبة ونفسي المتزعزعة، لم تغن كتب الفلسفة ولا علم الاجتماع، ولا قصائد الشعراء أن تكون عونا في وحدتي، البحث عن الكهف المفقود الذي يهدئ من اضطرابي، أما آن لي أن أصل سدرتي التي تمنع عني هبوب الريح وتوقف سيل العواصف، بدا لي السير غير المتناهي، والأمل الذي يصغر ويتضاءل كما تجلت بيوت القرية وأزقتها، والأفق الأزرق الممتد فوقها.

لم أعد أعرف مطلبي من هذا المرتقى ولا غايتي، فكرت عديد المرات، أن أطلب عبدالله إلغاء مشروع الزيارة، كنت خائفا أن تلحق بي وصمة الجنون، وأن أعود لمدينتي درويشا مسكينا يحمل تعويذة أعلقها فوق زندي، حتى إذا ما حدث وسقطت، فسوف أسقط مغشيا علي، قلت في نفسي ربما تكون قلادة بخيط فضي تعلقها في جيدك، تكسبك مظهرا شبابيا، لن يرى القوم الجسم البرميلي في نهاية الخيط، ذلك الحرز الحريز في تابوته المصنوع من الرصاص، لن تستطيع الفكاك منه، ولا معرفة رموزه إشاراته، وستندر بالويل والثبور إذا طاف بك طائف أن تفض بكارته، أو أن تفك طلاسمه، سره في

غموضه، وسيفقد قوته وتأثيره مجرد أن تلمس يدك ورقه وتقرأ عيناك حرفه. لم يغب عنك

يتلوى جسدانا داخل العربة في حركة لا إرادية، أتشبت بكرسي السيارة بيد، وبالأخرى على مقبض بابها، أرسل البصر على المنعرجات التي تأبى أن تنتهي، الطريق الوعرة الضيقة، هل يسكن السر بعيدا على رؤوس الجبال، بعيدا عن منازل السائرين والمنهمكين في دوامة المقضي، تخيلت الرابض في الأفق الجبلي شيخا قد طوحت به السنون ورث الحكمة من أسلافه المباركين، أصحاب البصيرة النافذة، والعالم المكشوف، وقورا في مشيته، لم يدر بخلدي، أن الحقيقة صادمة ومخيبة للتوقع، قال صاحبي، إن الله لا ينظر إلى صوركم، غير مصدق ما أرى، ذقن مرسلة في غير انتظام، قفطان ينحدر تحت الركبة بقليل، كانت الأظافر طويلة، تماما كما كان يصور الفقيه مرابع الشياطين ومنازل العفاريت، خلف كل جزء من جسده الهزيل تختبئ عفاريته التي يستعين بها، سوقا مكتملة للقاذورات ومردما مفتوحا للبراغيث والقمل.

لاحظ عبدالله امتعاضي وتأففي، وربما مقدمات جنوني التي لا يستطيع أحدا التنبؤ بما سيكون، همس هكذا هم الدراويش نفوسهم طاهرة لا يأبهون بالبراني من أشكالهم، كان مدير أعماله، ينظم مجموعات الداخلين، ولا ينسى أن يذكر الحضور بأن صاحب نعمته، أو كما يحب أن يناديه بالشيخ تارة وبمولاي أخرى، بعد أن يستفسر عن الحالة وسبب المجيئ، مؤكدا أن حالات كثيرة قد مرت من هنا دخلت واليأس يظلل سماءها وغيم مآقيها يتنزل مطرا سجيلا يحرق الكباد ويشوي الأفئدة، ثم لا تلبث أن تتنزل عليهم شآبيب الرحمة ومزاريب النعمة، لم تستطع مخيلته الفصل بين الديني والسحري في المشهد الماثل، يسمع البسملة والحوقلة، والاستغفار، ويرى شياطين

اللعنة، وكهوف السحرة والعرافين، بدا له السحر ضبابي معتم، هل ما يمارسه القوم اليوم وعلى مشهد منه، هو ما قرأه في الدفاتر، والأسفار كونه ظاهرة اجتماعية عمرها آلاف السنين، وكما يردد والده الفقيه لا علاقة للدين بالسحر، ينبغي عزلهما.

لو فصل هذا عن ذاك ما كان لي أن أقطع المسافات وأعبر الوديان والجبال، لولا ما همسه المقربون وأكد عليه عبدالله إنه يداوي بالقرآن، وأن صاحبه يتعاطى السحر الأبيض، الأمر الذي أحالني إلى النقيض والضد، السحر الأسود، غير أنه عندما ألقيت نظرة من عل ورأيت بيوت المدينة البيضاء مختلطة بصفرة الأرض، التي بدورها أذبلت يقيني ورددت قول العارفين من شيوخ قريتي عندما يختصمون ويعاودون الخصام، عن كرامات ومعجزات، وينتهون للخواء والفراغ، يرددون في استسلام كامل لا يقبل الجدل "اعتقد ولا تنتقد ولا تطمئن لأحد" تركوا نصف الحكمة الأول وتبعوا نصفها الآخر، حقا إنهم كانوا منصفين، وأقاموا ميزان العدل.

تيقنت أنني واقع في برزخ الأبيض والأسود، وأن لا مناص من مزجهما مرغما، الأبيض بطعم الأسود والعكس. ارتفعت أعمدة الشمس تجلد الأرض العقيم بسياطها الأبدية القاسية، تعلن عن يوم تتيبس فيه ما بقي من نسغ الحياة، حتى الطيور هجعت في أوكارها أو حطت تستظل بالصخور، وتتشبث بالشقوق بحثا عن الرطوبة والظل، كنت أراها فاغرة مناقيرها محاولة أن تلطف الهواء، كانت أجوافها حمراء بلون الدم بينما تهتز ألسنتها كسعفة في مهب ريح عاصف، تفتح جناحيها وتعاود ضمها، كمروحة تجلب الهواء وتنعش أجسادها النحيلة، كان عبدالله يرى في هذا بداية كرامات الأرض المباركة التي دخلنا حماها، طاف رفيقي في تلك اللحظات مراقد كثر، وتمسح بأعتابها،، هم وحدهم طالبو السكينة والراحة، من يسيرون في يوم

تشوي فيه أرض المباركين الوجوه وتلهب الأقدام، كانت نار غربتهم داخلهم أشد احتراقا من المحيط الذي يظللهم، لم يتوقف زحف العربات، التي بدت كنمال تبحث عن فرائسها في غابات مطيرة تتسلق سيقان شجراتها العملاقة، فريق يصعد السبيل يحمل الرجاء وآخر وهو يهبط متيقن من تجرعه كأس الطمأنينة، يتحسس حمله الثمين، ويخبئه العاقلون في جيوب التيه العظيم. لأماني مدسوسة ككنوز لا تخرجها إلا يد القوة المتين، لأحلام بالرفقة، ولفتح أبواب سدها صاعدون آخرون، ودسوها في أماكن حريزة أماكن ما كان لهم أن يكشفوها، وخزائن للرزق ليس لها مفاتيح إلا صعود الجبال، وتلقفها من الذين تكشفت لهم مغاليق الظلام، عبر ممرات الرجس والدنس.

ريح البخور الهندي، واللوبان الذكر تتسرب عبر أحاسيسي، أشتمها تزيدني اختناقا، تمنيت أن أسكب بحار الكون على مجامرهم، وأن يغرق طوفاني شواطئهم التي صدَّق صديقي أنها تجلب لي الطمأنينة، عبر الذاكرة مررت على مرتفعات (النقازة) التقطت شيئا من شيحها وزعترها وإكليلها، قدمت لغجريتي السليب، غصن الإكليل الذابل، نزعت ثوبي الطويل، وضعته على صدرها النافر، رقصت في الفضاء ودرت حول نفسي، كانت تلهبني وتلهمني، وأنا أتقد شوقا، كانت دمائي تتفصد، وتسيل نهرا دافقا، سكرت به وسكرت حتى الثمالة، كان صوت الدفوف يعلو، لأواصل الدوران والدوران، تماما كمولانا جلال الدين الرومي، كان أقصر طريق وسبيل إلى الله هو الدوران والرقص.

6

في اليوم الموالي، كان جسدي متهتكا منهكا متعبا أشعر أنني قطعت آلاف الأميال عبر مفازات خالية، حلقي جاف، أبحث عن شربة ماء تطفئ جوفي المحترق، الشمس تخترق رؤوس الجبال ترسم ظلالا متداخلة تتساقط على الأرض تصنع بساطا بدائيا لألوان باهتة، حينا وأخرى يغمرها النور، بينما بدا ظل القبة نصف كرة عملاقة تحط على الساحة وتملأ فضاءها، ربما تعمد البناؤون عند رفعهم سقف القبة أن لا تختلط ظلال رؤوس الجبال المحيطة، والقبة المباركة، التي كانت مسرحا دائما وشاهدا على ليلتي التي سافرت فيها بعيدا أتلمس جدار منقضا، لن أتمكن يوما من أن أقيمه، ولم ولن أتخذ عليه أجرا.

امتلأت مثانتي كان علي أن أنحدر مع انحدار الجبل، سرت محاذيا السور الواطئ تجاوزته قليلا الخرق تملأ أشجار العوسج، ومزقتها سياط الشمس القاسية وزفرات الريح العاتية، لكنها واصلت خفقها، أسمالا بالية، معرض ألوان يغلب الأخضر والأبيض عليها، تواصل خفقها وفي كل خفقة ربما تجلب حبيبا أو تقرب عاشقا، رآهم يشبكون أيديهم بين خفق البنود، ونقر الدفوف، يعود الغرباء والمجانين إلى مخادعهم يفجرون الحياة من حولهم، شقوق الممرات والحفر تمتلئ بكرات الشعر المتكتل، شعر أسود فاحم وآخر مازالت الصباغ تكسوه بلونها الذهبي اللامع.

شيء من أجسادهم وأجساد آخرين جلبها العابرون، تساءل هل حقا حاق الويل والثبور بأصحاب الأظافر والشعر، وأن عملية الاتصال تحدث بعد انفصال جزء من أجسادنا، ونجح ذلك البدائي المتوحش الساكن في رأس الجبل بإيجاد علاقة تواصلية مع من يود التأثير فيهم، تماما كما استدرجتني حلقتهم، لتصل دون وعي منك ويحدث الوصل، كنت مستمتعا تعيش اللحظة وتهيم بها.

اليوم أدركت السر الأكبر عندما كانت أمي تجمع شعر بناتها، وتلتقط أظافرهن، كان تنورها المتقد تطعمه لفافاتها، ريح اللهب وصوت الخصلات المتقد أسمعه فرقعات متتالية، أشتم عطر الشعر المنصهر، كانت زخات من النار تخرج ألسنتها من فرنها المستدير كلما حركت عصاها الطويلة فؤاد وجوف كوم الحطب المستعر، رأيتها حينا تفلق الأرض وتحفر الأخاديد تدس تلك اللفافات التراب، النار والتراب سلاحاها الفاتكان وتراتيل لا تتوقف مشفوعة بالبسملة، كانت مرعوبة وخائفة من غوائل السحر وفعل العفاريت، تأملت أكوام الشعر والأظافر الملقاة، خلت أنها لأكوام الشعر التي قصصتها في المعسكرات وعند الحلاقين قد غدت في أيدي هؤلاء، وأن كلاب المحققين قد أخذ شيئا من أظافري، وطارت حدأة ذات صباح لتحط عند رأس الجبل.

تلفت صوب القبة بتجليها الرهيب والباذخ تطاول ظلالا لرؤوس الجبل المحيط بالمكان من أركان ثلاث، ترسم لوحتها المتجددة بتجدد دورة الأرض حول نفسها وحول بعلها الشمس، تماما كما دوران الدراويش المفرد في رقصاتهم المكررة وفي جوقاتهم الجماعية، قفاطينهم الواسعة والمنتفخة بفعل الدوران، أيديهم الممتدة نحو الأفق وأصابعهم المضمومة تشبه وجوه الكلاب المنطلقة في عدوها تلاحق فرائسها، ظلالهم المنعكسة تشبه مخلوقا خرافيا لم تكتمل هيأته بعد، وتصنع في ليلها المنصرم سيلا من القباب في اضطراب وتداخل، كما

فقاعات ماء يغلي في قدور الأمل وسبحات الرجاء، الليل يحاكي النهار، الأول تصنعه بقع الضوء المنسكب من مصابيح قدت من عقول دبرت وخططت، بينما الثانية سرمدية الوجود، وما بين هذا وذاك، تهيم الأرواح وتنتشي الأنفس، وتفرغ جيوب وتمتلئ أخرى، ويهيم العاشقون لا تغادرهم القباب ولا ظلالها، يشربون كأس الثمالة ولا يرتوون، لا يرون الكون إلا سبحا ودوائر تلف وتدور وتختفي كفقاعات غدير في يوم ماطر، أو قدر يغلى ماؤها، يتبخر في أفق الكون.

كانت أسراب الطيور المبكرة تحوم في صمت جنائزي مفزع، تحوم حول المكان ترسم ظلالها على القبة لتخرق استدارتها، بدت بثورا صدئة تزين أديم المشهد كما لوحات "محمد الأمين" التي تصنع من الفناء بقاء ومن المنقض جدارا وجدارية، بينما انقضت أخرى تجمع الشعر والأظافر لتغيب في رمضاء المكان.

أنَ لي أن أوقف سبحها المعربد وحركاتها البهلوانية لم تكن متعبة ولا مجهدة، رأيته رؤيا العين كانت يده ناعمة بيضاء خفيفة، ربت شيخ قريتنا على كتفي، يطمئن أمي الفزعة المفجوعة، أرقبه وهو يفتح كتاب البوني الشهير، بعد أن استله من أمام رجل يرتدي قبعة حمراء ويفترش الأرض، ها هو شمس المعارف الكبرى بين يدي، تركني شيخي وحيدا عكفت أياما وليالي أقرأ ما فيه، تردد صوت في داخلي وأنا استعيد صورة أبي يردد "اقرأ تفرح جرب تحزن" هكذا هو الشك والقلق، لقد أضعت وصية صديقي: أن تعتقد في ما تفعل، شدتني مقدمة الكتاب الباذخة التي تشير إلى الصلاح والتقوى، بل يطلب مني التطهر، أتمثل صورتها وأنا أعد تمائمي الكثيرة والمعقدة، أنشرها في الليالي الصافية تواجه النجوم وتكمل دورتها مع بدرها التام.

كان لزاما أن استعيد الليلة الرائعة التي استطعت فيها جلب غجريتي دون مشقة، وأمامي رحلات طوال وسفرات متكررة كي أعيد

ما بدا لي سرابا، التقيت معلمي ذات مساء شكوت له سوء الحال عرف ما بي من تباريح الوجد ناولني رقيته التي افتكها من كتاب السحر العجيب في جلب الحبيب، توقفت حائرا أي الأحبة أبدأ به، رأيتهم طابورا يتدافعون باتجاهي.

أتجسس أمام الباب الموصد أسمع كلمات تتردد، تملك القوة تخترق حجب الكون وتلج المغيب، أسماء روحانية لملوك الجن وأسماء للعفاريت، أتودد إليها وأطلب حاجتي، كانت الرموز تملأ المكان وتحاصره، يتحرك جسدي تحت جس اليد المدربة، وتشير يدي إلى مواطن الوجع، عندما سكنت كفي وهبطت راحتي على بطني وتسمرت، تعالت منه صيحة، وأقفل الدائرة، على قرطاسه، لأول مرة كانت التمائم تكتب وهو يعاين الحالة ويفحصها، أسمع خليطا من لغات مختلفة بعضها عربي وآخر سرياني وعبري، إنه ينفذ العهد والوعد والقسم بينه وبين عالمه السحري، يصنع رباعيته بتقمصه دور الساحر، يتلو تميمته يستدعي جنياته لأكون في دائرة التجريب.

ثلاثة كاملة استبقاني المعلم الأشعث، بينما انهمك صديقي في ثرثارات مع جموع البشر، التي تشكي همومها ووجعها، استطاع أن يخفف عن بعض الإناث بعض أثقالهن، وعدن يحملن الخصب الموعود في أحشائهن، كنّ يتجنبني باعتدادي ملموساً وربما تنتقل عدواي عبر أجسادهن الغضة الطرية، كنت أقول لعبدالله "اتحطبلك الريح"، وصوت أنين الشهوة المنبعث في ليل الجبل المريب يطرق مسمعي، ولهاث عبدالله وهو يمارس دوره المريب، وبلاؤه الحسن والمتكرر، كانت أصابعه تقطر صباحا بالعسل والسمن مغموسة بين أيادي كثر، المشهد والشهد توأمان سيربكان أيامي الحبلى بالجنون والتيه.

7

في ليلته الثانية، تأخر القوم في نقر الدفوف وفي ترنيماتهم التي شده الشوق إليها وتاقت نفسه إلى عالمهم يحلق بعيدا، هبت نسمة مسائية رائقة، علا دخان المواقد وارتفعت ألسنة اللهب، كان صوتا جنائزيا رخوا ينسكب عبر شقوق ذاكرته، تمايل طربا وانتشى داخله، حلقات النساء تبدو باهتة لأجساد تتمايل أخذتها النشوى واستبد بها الحنين، واطمأنت الأرحام إلى ماء الحياة الذي تدفق عبر أحشائهن يدركن تماما ما وقع، ويرسمن مشاهد سوريالية لاتصالات روحية ولذات موهوبة تمنحها يد الفقيه، سيتناسين كل ذلك مع ضحكات أطفالهن الذين لا يشبهون آباءهم.

جمع نساء يتحلقن حينا ويصنعن دوائر لكتل من اللحم المغلف، تماما كنساء قريته الكثيرات، كلهن يصمن رمضان، والست من شوال، ويغزلن الصوف بمغازلهن التي طالما ثمل ومتع نظره بسيقانهن التي يمرر عليها المغزل ويعلق في الهواء يدور ويدور وفي كل دورة يفتك شيئا من عُهنهن المنفوش، كانت سيقانهن بيضاء مكتنزة، بعضها منساب طويل، وأخريات بين بين، في الصغر تشدنا حركة المغزل وفي الصبا عيوننا تجحظ وهي ترقب الحركة السريعة لليد المدربة على السيقان الرخامية، حينا وعلى أخرى حجرية، شيئا لا نعرف كنهه يتسرب داخل ذواتنا يجعلنا نهوى مجالسهن ونلتصق بأجسادهن،

يطردننا دوما لنعاود المراقبة ونستعيد التلصص، ونصنع خيالاتنا المفعمة بالنشوى.

نعم هن من يعددن قصاع الجامع، ويعتمرن مرافقات لذوي القربى، ولا يغتسلن ليلا خوفا من الأرواح، ولا يسكبن الماء الفائر في مجاري المياه، ويبسملن عند لمس كل شيء، ما الذي أصابهن، أي مس رجيم حل بأجسادهن؟ حتى جعلهن لا يتورعن أن يطلبن السحر، ويقعين مستسلمات لتلغو الكلاب آنيتهن المحرمة، بتن هن من يفرقن بين المرء وزوجه، والرجل ونسله.

خر مصعوقا وهو ينادي في نوبة جنون إلى أين تسير بي يا عبدالله؟ هل ستكمل دورة يأسي وجنوني؟ مر طيف ياسمين سريعا.

عندما لاحظ بعينيه الثاقبتين، وهو يمور بروح الشباب وعنفوان الشهوة، أن شق باب بيتهم المشروخ، يمتلئ بالقراطيس، تحسس حرزا منها تشممه وقربه، كان منقوعا في زيت القرنفل والطيب، استشعر أن إناثا كثر تسكن داخله، مرت بعقله أطياف متداخلة لصبايا القرية ونسائها، ومغازل تنسكب بتلقائية مفرطة وأثداء مسرحة طليقة خلف الأردية الشفافة في جلساتهن المتكررة في سقيفة بيتهم، رسائل تبثها أجسادهن عن ليالي مبرقة مرعدة ممطرة، يتضاحكن ويتهامسن، كان شَعَر بعضهن في صباحات الصيف مشبعا بقطرات الماء، إنهن يضحكن ويتغامزن، عن خيول وأفراس وفرسان يقطعون الوديان على صهواتهن، ويتلذذن وهن يحتسين الشاي المعطر بالنعناع حينا وبالقرفة أخرى، كانت العجائز يسألن في مكر وتخابث، لم يكن يفقهه، لكن شيئا ما يتحرك داخله اليوم، لم يتورع عن تمزيق الكيس القماشي الذي يحضن التميمة، رأى نجوما وأهلة تتقاطع فوق الورقة، ونجمة داوود تحتضن الرموز، كانت أهلة الأناضول ونجومها تأخذ حيزا من ظهر الورقة، قرون لوعول كان قد رآها في جبال

أكاكوس، والثلاثة المرفوعة تشبه شمعدانا في معبد يهودي، كانت آلهة الليبيين القديمة حاضرة وتمارس فعلها، لوحة سريالية متكاملة، حاول تقليد رموزه، وأعاد رسمها حتى تفنن في صنع نجومه وأهلته، امتلأت بها جدران البيت والشارع، استطاع أن يتبين بعض حروفها، كانت خلطا بين المقدس وشيء بين السحر والدين، قرأ أشتاتا أشتات، لم يعرف كنهها، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة، استعاذ بالله من شرورهم، تبين عبارة تقول، ليبتعد فرج عن سلمى، كما يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، قامت قيامة فرج وطلق سلمى، بقى فرج وحيدا شريدا حلت به لعنة الفراق، وأسره الحنين، لم تعرف القرية السر الأكبر وراء ماحل بهما.

مازال يحتفظ بالسر الأكبر بين ضلوعه ويستبقيه، تمنى أن تكون جذبتهبين المجذوبين محلقا في فضاء المريدين اليوم معها، يعرف تماما تضاريس جسدها اللاهي العابث، منحة من السماء وعطية، كم من ظهيرة تشبه ظهيرة الأمس وهو يتمرغ على الصدر النافر، وفي ليالي الصيف الرطبة الندية، في مواسم البطيخ الشهية، تتنزل على قلبه، قطعا حمراء قانية تلقمه قطعها الباردة والمختارة بعناية، قطعة فقطعة وتنسكب في جوفه بردا وسلاما، كانت مكافآته تكبر وتزداد كلما نجح في مهامه، لم يكن وجهها جميلا، لكن جسدها مغريا حد الاشتهاء، يستسلم لرغباتها تفعل به ما تريد وتشتهي، جوقات من اللذة وحشرجة تشبه الخوار، وملمس للأفاعي تنزلق راحتاه على الجسد الرخامي، الذي طالما داعب المغزل، ثم لا يلبث أن يسكن الكون من حولهما، وتنام القرية قيلولتها، ويسكن رأسه الصغير بين أثدائها المكتنزة، تسقط إزار رداءها مرة واحدة، كصبية تقدم عرضا في ليلة شتاء باريسي طويل، كم فاجأه الجسد العاري تماما كما يوم الميلاد، تخرج منه آلاف القناني والبرطمانات لعطور لم يألفها حسه الشمي من قبل، ينسكب على الجسدين الملتهبين.

أسمع نشيجها عندما أبتعد عنها متعمدا، كانت تطلق دعاءها وتستعين بمن تعرف من أوليائها الكثر، وتنسى الله، كانت ترسم الخمس كلما غادرت، وتصر على أن تلبسني الودع، تدخل بركتها ـ كما تقولـ عندما تداعب أصابعها وتعبث بجسدي المستكين، باحت بعشقها المزمن والمتوقد، طاردت شبحي في مراقد الأولياء، وعند العرافين والعرافات، حتى جعلتني ذلولا طائعا أنساق وراء رغباتها، لم تكن تدري أن بي مابها من شوق لِلثم جسدها واحتوائه، عندما كانت تتبختر في المناسبات وتنحني على القدور، ويندلق ثدياها الفاتنين ككتيبي رمل، وردفاها العظيمان، عالم يجعلك تسبح في البعيد تنصب خيامك تستظل بظلها الظليل.

هي تعُدني هدية من السماء، وأنا أعدها مأدبة فاخرة لفقير معدم، جلبه حظه في رسم رسمته يد العراف، وفي خط خطته يمناه، في كل مرة أتسكع عبر جيوب جسدها أتفرس في كل جزء من الجسد، أتوغل بين ثنايا شبقها، وفي كل ظهيرة أنتظر المزيد.

كانت الطمأنينة تسكنها، فهي لم تقدم على فعلها إلا بعد أن صارحت عرافتها، وباحت بسرها المكنون والمزمن الذي سيطر علها وسلب لبها، باغتتها قارئة حظها وبادرتها بالقول، الله لا يحب كسر القلوب يا صغيرتي، قلبك المعلق بين السماء والأرض لن يترك هكذا، ولن أفلح في إطفاء نارك، لابد لجسدك أن يرتوي بلذة المعشوق، ستنهلين وتنهلين، ثم لا تلبثي أن تعودي لعشك القديم محملة بالطمأنينة والظفر، يغفر الله الخطايا ولكن جبر القلوب غير متأت.

تستعجل اللذة تريد أن تطوي مراحلها، تخاف الفراق وتخشاه، وتأمل العودة لزوجها الفقيد الذي بدأ يبتعد طيفه عنها، تمرر أصابعها المزركشة بالحناء على كل ندوبي ترسم خرائط الجسد وهي مغرقة في براكين الشهوة، وتضع يدها الأخرى على فمي حتى لا أقطع خلوتها،

رقصاتها العبثية وترنح جسدها المفتعل بين دراعي، تطوف أركان بيتي العميق وتقبل مالان من جسدي وما تصلب، لم تكن إلا عرافة خرجت من معابد أور وصبية من بنات أورشليم تمارس الإغواء تعود بي عصور موغلة، تتمسح بالجسد حينا وتتهجد أخرى، تنزف دموعها دافئة تبلل جسدي، تحرص على أن تكون عن يميني تبركا وتيمنا، تغرقني هداياها، حتى أخالني أجيرا عندها، كل مرة أقسم أنها ستكون الأخيرة ولن أعيد الكرة، تهمس في أذني أن هديتي ليس إلا فتحا للكتاب المعلق بيننا، قبلني حتى ينفتح ونقرأ سطوره على مهل، هكذا تبدو وصايا العرافة وتعليماتها.

تهدأ براكينها وتنطفئ ناري، يتزلزل كياني، لتحدث شقوقا داخلي، ردَّات فعل لزلزالها الذي يفقدني التوازن، غير أن عذب غنائها كان يشدني، أناشيدها الصوفية، وتراتيل الدراويش، كم كانت تحفظ منها، تمجد أولياءها وهي تدرع الموقد المتقد ببخورها والمتصاعد بين قدميها ومن خلال فخديها.

لم نكن مسحورين أو ساحرين، يمارس كل منا سحره على الآخر، كنت أجد غايتي فيها وكذلك هي، أصاب بالدوار عندما تنشد تراتيلها، وتترك شعرها الفاحم يتلوى، وينثني على جيدها، ليرتد حينا على ظهرها العاري، أفقد توازني وأسكر من معينها، تنثر الكمون الأسود وتبخر ثوبي، وتطلي أشياءها الجديدة بالحناء اتقاء للحاسدين وتجنبا للشر.

هل كنت في نظرها غواية يوسف، وكانت كيد زليخة، في حين كنت سجين الشهوة، وبقى يوسف يسير في نبوءاته ورؤاه.

مارست الإغواء فنونه، وباشرت سحرها الجسدي والفعلي، فقد علقت تمائمها على أغصان الزيتون أمام بيتنا، كلما اهتزت

الأوراق يهتز معها فؤادي، ومع هبة كل نسيم يرق قلبي ويشتاق، تبتسم في خبث، لتقول ها قد حركت ورقاتي، لم أكن أسلم من غضب الريح واشتداد هبوبها، كلما اضطرب البحر كانت تضحك أيضا وتزداد التصاقا، في كل قطرة ينزفها محرك ماء القرية، كانت تبتسم، وعند كل موقد للبخور، ومع أرغفة الخبز المحمى في تنورها، يشتد هيامي، تعاويذها تحاصرني وتسلب لبي، تعشق القبور وترتادها، تطمئن على كنوزها، كان يشدني الحنين وهي تضحك، كلما ألقمتني زادها، يزداد لهيب شوقي، لقد سدت الطرق من حولي وأقامت جسورا تفصلني عن عالمي، كانت واثقة وهي تبتسم، أنعطف نحوها لكن الصرف يوهن جسدي وتخر قواي[1].

لم تكن الزهرة إلا تمثلا لكوكب بعيد كانت وردتي زهرة تحمل شبقي وتفجر لذاتي، تفجرها وفقا لساعة الزهرة، كان الوقت الأكبر يخصص لكوكبها، كانت الثالثة ظهرا ساعتها التي تدور حولها وأدور في فلكها[2]

لم يكن يوما مغايرا لما سبقه، ولم ألتقيها إلا عبر صورة فوتوغرافية، لا أدري كيف تمكنت من الحصول عليها، استطاعت أن تخترق حجابي المكين، وترسل جنود الجنون في أثري، تصب حممها تقذف براكينها، أتلصص على جدارها وأتمسح به، رسائل مدح أمزجها عبر رسائل سيئة الإعداد، كانت تفهمها وهذا ما يهمني، أسكب مديحي طريا منتفخا متوردا كزرع الوادي أخضر متماوج، كانت تبتهج، وكنت كذلك أيضا كيف لأنثى مكتملة أن تستجيب لعبث صبي

[1]العطف والصرف مصطلحان عند ممارسي السحر، الأول هو انقياد المسحور نحو الساحرة وتحكمها فيه، أما الصرف فهو الأثر العكسي الذي يحدث في جسد المسحور بإضعافه شيئا فشيئا حتى يهلك.
[2]هذه معتقدات علم السحر، وهو تقسيم اليوم إلى وحدات فلكية تبعا للكواكب، وقد اخترنا الزهرة لما لها من علاقة بالموضوع.

لاه، تستعر النار تحت جوانحي، وأسكب قارورة العطر على جنبات الوادي، الذي تقبل رخات كثر عبر مواسمه المتساقطة مع حبات عمرها، كان قطري بكرا يتنزل طريا يلامس الأرض العطشى، أشم رائحة التربة الجذلى، كانت مواسم للكمأ لطيور الحبارى المغردة، ولنبق السدر، هي تبتهج، وأنا أتحول شاعر يرصف الكلمات، وتدخلني لحنها الصوفي نتدثر بعباءات الغيب، صقرا جامحا يختطف من أسراب الحمام فريسته، تطير به بعيدا، لم يعد شاهينا، يفتك بصيده، بنى عشه عاليا عند رأس الجبل تماما كالذي لاح له في الرحلة الروحية، كانت تهجع في عشها المتسامي، تربض بين الريح والشمس، تحلق بعيدا طيور الحبارى وقبرات تُصَفر وسط حقول القمح الممتدة، في البدء كل فعل آتيه يلقى استحسانا، وكذا هي، كانت اللغة تشتعل بيننا، في داخلها يسكن ناسك، وفي داخلي يسكن شاعر، هكذا وصفت حالنا يوما، كانت اللغة مقياسا شادا في علاقات تلك الأيام، في البدء عدها المراقبون علاقة دراويش، وحب ثيبي، اللغة تفتك بالحصون، وتحيد العتاد وتقهر الوجود، كان المعنى يتسع، والنتيجة ترابطات غير متوقعة، تشكل رؤى تنتج المثالي، فهي لا تعرف الحسد ولا أعرف الكبرياء، لا تسئ التصرف، يؤرقها الظلم وتبكي عندما تشاهد التلفاز عما يحدث في أركان الكون.

تصفح عن خطاياي وتصدقني في كل شيء، وتأمل مني كل شيء أن أخلصها من واقعها الذي يثقل كاهلها وحبات زمنها المتساقط، لم تطلب شيئا ورقة صغيرة نكتبها سرا وبشهود، وقد كان، لم تعد حقيبة رجاء تسافر كل يوم مع شعاع الشمس المتساقط لتعود مع الغسق، وكان نداؤها المتكرر "أحببني قليلا" تشحذ منيالمشاعر كنا نفرغها لذة وألما، رضا وسخطا، نبتهج كي نواجه البؤس من حولنا، نقتنص السعادة لحظات مقابل السواد الذي نحياه، شعور الحياة يتناوب في الشعور بالخزي والخوف والشرف، كانت لقاءاتنا انصهار

شعورنا، فيها وبها نفقد المساحة الفاصلة بين ذواتنا، لا ندري هل كان ما بيننا تفاعلا، أم كنا عفويين وتلقائيين، لابد أن كنا عميانا غمرتنا ومضة الإبصار، خلواتنا شكلت قيمة لي ولها، ليس مُهما أن تحظى بتعاطف من حولنا.

الكون الذي نريد بدا من حولنا أكثر ألقا وأهمية، لقاء الأجساد دالٌ بذاته، تماثلت مشاعري للشفاء بعد نقاهة متعبة عاشتها، تحول ما بيننا رموزا لقيم ظلت متخفية، لم تجد تربة للإزهار.

عندما ألقت رأسها المتعب على صدري الحاني، كانت حجج مشروعية اللقاءات تفقد حجتها، لم يكن من منطق يجمعنا، إلا ورقة ثاوية في قعر خزانتها، لا تستطيع هي إشهارها، ولا أقدر إعلانها، لم تكن علاقتنا موضوعا مطروحا للنقاش، حالة من الانعزال الصوفي نعيشها نرفض التواصل مع الآخرين، لم يكن هناك متسع لاستماع ما يقوله الآخرون، فقدت اللغة حجيتها، لم يعد للقضية أطراف بعد أن توحد الأنا في الآخر.

وشوشتني وهي في غاية النشوة، أقتل المعاني داخلك، إنها تمارس هجومها القذر وسحرها الطاغي والمربك، قالت جردنا من: لكن، ومن لو، نحن نتخذ قراراتنا لاقاضي اليوم يحكم بيننا، ولسنا مجالا للمرافعة أو الإدانة، عدالتي هو أنت، بعيدا عن الشكلانية التي تحيط بنا وتخنقنا ، تقاذفننا أمواج الحب وعصفت بنا العدالة.

رسمت بكلماتها قصيدة رثائها، وودعت فيها اكتناز المعاني.

8

في مساء ذلك اليوم الجبلي شدت في الأفق أنفس تتطلع إلى يقينها المتذبذب ورجائها المرتقب، الهالة المرسومة تجعل المشهد حقيقيا غير ذي زيف، تزحف فئات المريدين صامتة في بدئها، تطأ أقدامهم العارية أرض المكان بحذر وريبة تمسها مسا، كأن تحديرا داخليا أفزعهم، حد الرعب، خوف أن تدوس اقدامهم عفريت من العفاريت الكثر التي تتجول في المكان بحرية، أو أن يتملكهم آخر خرج لتوه من جسد منهك متعب، كانت الصبايا يسرن بقلق خوفا أن يتعشقهن شيطان من الجن فيفسد عليهن عيشهن، أما الرجال فهم سلاطين وفرسان، فيتزوجون جنيات يرافقنهم حياتهم، وينجبون ذكورا وإناثا، بل إنهم يُسَخِرون جنياتهم في جني المال والربح الوفير، فلطالما مر في حياتك وسمعت عن كثيرين وقعوا في غرام بنات الجن، وأوسعوهم رغبة وشهوة، وملأت عذارى الجن وملكت يومهم، فلم يعودوا يخالطون البشر، ويكتفون معهم بلغة الإشارة، وكثيرا ما يرونهم وقد علت أصواتهم غاضبين عندما يؤدب أحدهم بنيه الكثر غير المرئيين، الأصوات الآمرة، والأسماء الغريبة التي يتفوه بها أصحابها، تجعل صغار البشر يفرون خوفا ورهبا، من أن يكونوا هدفا وغاية لشيطانهم.

حاله يشبه لحد كبير حال أولئك الرجال المنبوذين الذين يعيشون الوحدة، ويسكنون أطراف القرية، ويترددون على القبور، كان في كل مساء يترقب جنيته ويستعد للقائها، يدرع أفق الأمكنة، لا يبالي

إن كانت تلك الفضاءات موحشة بعيدة، يقطع المسافات متربصا، نام بين القبور كلم الموتى، تحسس أجساد جنياته، وملمسهن الهلامي، كانت ريح الغربي الجافة، الملأى بالعفاريت والمشبعة بالجنيات، في معرضهن البهي والباذخ، كلما سلط عينيه في الأفق الممتد، كانت زخات الغبار والهواء المشبع تجبره على أن يتوقاها لتنغلق جفونه دون إرادة منه، في تلك الومضة، تسافر أطيافهن بعيدا في ملكوت الله، كان عليه أن ينتظر مجيئها في العام الذي يليه، هم لا يعرفون أي عذاب يسلكه العاشقون، وأي لذة تغمرهم عندما تتجلى مخلوقاته لطيفة كهبوب نسمة بعد يوم قائظ وجاف، يبقى عامه كاملا ينشد الوحدة، باحثا عن لحظة استعادة، يتودد إليها بطرق شتى يتلو تسابيحه، التي لا يدرك كنهها المحيطون، ويضحك منهم سخرية ومنه يضحكون، لا يدري كيف أوقعه لحن الدفوف في غرام أبدي، وكيف كانت نقراته تحول جسده الفاني إلى ريشة تسبح في أفق حسناوته البعيدة في أفق الجنون، كثيرا مايسمعهم يتهامسون مابالله يرقص وكأنه في حفل ماجن، حمى الوجد تسري في مفاصله ويطير به الشوق، كان الزبد يخرج من فيه، أبيض ناصعا كقطع المزن الحبلى بأمطار الخير، فجأة يتيبس جسده وتتصلب أطرافه وعروقه، ويخر صريعا، بينما تسافر جنيته بعيدا وهي جذلى فقد بلغت النشوى منه مبلغها.

تلك الأسفار الموحشة قد نحتت أفعالي اليوم وتحكمت فيها، ولم أعد إلا امتدادا تاريخيا لكهول القرية وشيوخها ونسائها، وفي دائرة أكبر أمارس الاسترجاع الجماعي أمارس أسطورة الكون من حولي.

وصل العجز والخوف مبلغه، حالة هستيريا تنتاب الجسد عديد المرات في دورة الشمس اليومية، الخيبات تتوالى وتتابع، في الأسحار وعند الفجر لحظات من التجلي أخاطب، يرتفع صوتي مترنما بلغة لا يفهمها الكثيرون، لكنها تفتح مغاليق السماء، وتكسب الجسد بعضا من

طمأنينة وسكينة، أمر محاذرا بالقرب من خيامهم المكتظة بفزعهم المزمن وبطونهم التي لا تشبع، وأرفض لقيماتهم التي تكدر صفو روحي، لا يعلمون أنني كنت في صوم طويل وقاسٍ علَّ الله ينظر من عليائه إلى محنتي ويرحمني.

الزوايا تحاصرني وأصوات الدفوف تملأ سمعي، وجموع المريدين تعبر طرق السالكين، وأصحاب الحالات يكشفون عن ملكاتهم وقدراتهم ونبوءات تتهاطل في سماء القرية، أحاديث قدت عن موائد أعدت دون نار وبلا طابخ، كم كثروا القليل وقللوا الكثير، قلبوا القصور خياما والخيام قصورا، عندما يشتد بهم الوجد يعيدون سيرة أجدادهم الأولين، ويتحولون فراشات تطير فوق اللهب المستعر، ويتصايحون، كان زعقهم موحشا غليظا يخرج من جوف سبع أراضين وعيونهم الملتهبة، ترسل شعاعها المرعب والمخيف على جموع الحاضرين، وأصابعهم المتشنجة تجوس بين أجساد الجموع، تبحث عن الشياطين والجان تقتلعها من عيون الممسوسين، وتتعالى صرخات الوجع والألم، وتنسكب قطرات العرق تبلل الجباه، لم تكن أجساد الحاضرين إلا خرائط يستولون بها على مكامن العيب ومخابئ المتسللين من عالمهم الناري إلى أجساد الطين المحترق بنارهم، عمليات إطفاء لحرائق الجسد والروح.

أيها الجبل العالي لست إلا وتدا مربوطا بجوف الأرض، لن تكون قممك الشاهقة إلا منابت للريح، وملعبا للشمس الحارقة، ويبسا لحلقي الذي ينشد البلل، لم يكن إلا سفرا خائبا في أقاصي الحيرة، سوف أهبط منك كما الكثيرين، وأطوي الأرض وأسافر في عوالم لا أدركها، درويشا أتسكع بين أروقة القدر وأرقب ريح الغربي المحملة بالجن والعفاريت، ترافقني القطط والكلاب، والثعابين السود.

ما أحياه اليوم لم يكن إلا انعكاسا لما تغير من ملامح كنت أراها وأسمعها لأولياء يسكنون القبور ويمارسون سطوتهم على الأفئدة والقلوب، يطلبون العجيب ويقرون بالغريب، كان يوما محزنا عندما اضطر الجار الطيب مدفوعا بصرع لازم ابنه الأثير لديه، كانت النوبات تفزع البيت وترهق أهله، كانوا في حالة فزع وخوف وترقب، لم يجد تشخيص الحكماء نفعا، لم يعد من نافع إلا أن يجازف بسنوات تعبده وليالي تهجده، كانت التميمة التي أودعها، العراف في قلبه وهمس بها في أذنه، قتل الجدي الأسود خنقا، وإخراج قلبه نابضا خافقا مزرقا مكتنزا بالدم الأزرق، ليس لهذا الصبي إلا أن يلوك كبد وقلب الشاة المخنوقة، كان عرافه رغم ذلك لا يتوقف عن ذكر إله يستعين به ويسترضيه عبر خرق سننه وانتهاك حرماته. حينها تلاشى الخيط الفاصل بين عالم السحر والدلالة، لكل منها خوارقه وبركاته، فعالم الجن قائم عند العراف والساحر، لم أجد اليوم على قمة جبل المتيمين ما يختلف عن عالم قصي في ذاكرتي المشوشة والمضطربة.

ضوء القمر وخيوطه الذهبية تجذبني على وقع سيمفونية سمعتها عندما كنت أسير وحيدا في ميدان الشمس في تلك المدينة القصية، أسمع في يومي الكئيب أصواتا لم أعد أميزها في البدء كان لحنا رائقا، لم تكن كما يهيم بها الحاضرون ويرونها، لم تكن نقرا لدفوف ولا نفخا على مزمار، ولا وقع لدرابك في سامر الحي، كان طائر البجع يحلق منسابا عل البحيرة يفرد جناحيه الأبيضين، يحط بحدر على شواطئها القصية والبعيدة، لحن البجع والنهر ينساب رقيقا ناعما حينا يرق ثم يعاود الصعود، لتنذغم في مقطوعة جبال أطلس الخالدة، لم يعد شك في حقيقة ما أسمع، إنها سيمفونية ضوء

القمر،Moon Light تأخذني بعيدا إلى جبال الألب في عالم الموسيقى العذبة تمارس الإغواء وتجذبني.

أتسلق حجارة الجبل، تمارس الإغواء وتأخذني إلى عالم ينتابه الغموض، شيء من الانزلاق الممتع انسياب مع خرير ماء دافق، يترقرق داخل كياني، روض مبهم غامض أتحسس حفيف العشب من حولي.

كانت الأصوات ترتفع حينا وتصفو، أحس ناي الحياة يتمايل بين بناني، ويرقص الجسد، في وقع تضطرب خيوطه وتختلط، لم يعد من وسم أو علامة تجعل للمحيطين ولي من علامة تميزهم، كان كونا متداخلا زحام الأجساد السابحة كل في عالمه، السير وسط الجموع المتفرقة، غابة المساء تمتلئ بالزمجرات والحمحمات، وربما العواء المرعب والمخيف، أرواحهم وذواتهم تنتفض وتنتفض لتصفو بعيدا عند أنهر لم ترها أعينهم وورود لم يشموها من قبل، وضواري تتعقبهم يتصايحون ويتصايحون.

الليل رائق، أسير بينهم وحيدا، الإيقاع الملهم، كسر حجبي وأزال الأقنعة، تزاحمت ذاك المساء قطع عذبة من الموسيقى الملائكية، تدفقت شريانا أبهجني، لم تكن سيمفونية البجع أو الخروج، إلا موسيقى مصاحبة، تكمل شريطا أخرجه كما أشاء، سيمفونية الخروج من الجنة، Conquest of Paradise تخرجني من جنتي التي خلقها المعذبون من حولي، خيط الوجع والألم وشيء من النغم المنساب جعل المتفرقون يجتمعون.

أتسلل وحيدا خوف أن يتفطن لي المحيطون، أتسلق حجارة الجبل، كان الصوت يتبعني، أو ربما أذناي هي التي تتبعه، رؤوس الجبل الناتئة تبدت غيلانا عملاقة، لعفاريت سمع حكاياتها المرعبة

والمخيفة، عندما يغادرون تخوم القرى، ويدخلون الفضاءات الرحبة الممتدة إلى أفق منفتح على وديان تملؤها بنات آوى والضباع التي تتسكع في البراري، تتسمع أصوات أبو صابر وتبيد نسله، في حكاية يرددونها عن السر الأعظم الذي جعل مخلوقا قميئا لا يستطيع أن يحرك عنقه إلا بزوايا محدودة، صديقه أبوصابر، يرعى الحشائش وينعم بخيرات الأرض، ويتضور صاحبه جوعا، كلما هم أو فكر بالانقضاض عليه، كان أبو صابر يبعد الحشرات عنه عبر تحريك منظومة دماغه المعطلة، وأذناه الضخمتان تحدث صوت وقرقعة، تجعل الضبع الجائع يتراجع عن قراره المجازف والخطير، وفي يوم كان أبوصابر يناجي صديقه ويتسامران، قال الضبع إنك تثير فزعي في كل يوم، وأنت تستعرض أسلحتك القاتلة والمخيفة والأصوات التي تنبئ عن قوة عجيبة تختفي تحت هذين البوقين المرعبين، ضحك الحمار حتى تبدت نواجده، وأنيابه المفزعة، أتقصد صوت أذناي، لا عليك يا عزيزي إنها (هراوش وقراوش) هكذا نطقتها عجوز القرية التي تسرد حكاياها على مسامعنا تفسر لنا حركة الكون من حولنا وعلاقة الكائنات، أي بمعنى أن الصوت هو لعظام هشة طرية غضاريف، يسمع آكلها صوت قرمشتها، ومن يومها لم يبتسم أبوصابر، وأورث ذريته خوفا ساكنا يجعله يتشمم ريح رفيقه القديم من بعد أميال، وتحول صوت أذنيه ورأسه وتكفلت به مؤخرته، عبر هطل لا ينتهي، هكذا يقول العارفون الذين يسيرون في الخلاء وتترصدهم محاجر المفترسات من حولهم.

الضباع تسير في الآفاق تتبع فرائسها، تتمخطر في مشيتها، تراوغ طرائدها، تكشيرات أنيابها تثير الرعب، فصيلة الضباع، كان أشدها فتكا الضبع المرقط أو المخطط بلون فرائها البني الضارب إلى الرمادي الممتد عبر مساحة جسده. قوائمها الغزلانية المزينة بخطوط سوداء ،وآذان يغلب عليها السواد، تتمخطر بلبدتها بشعر طويل وتزداد

جمالا وروعة، عندما تنتصب عند شعورها بالخوف، كان أبو صابر يقذف مافي جوفه، ويرتعد، كانت العجوز وهي تصور حالة الفزع تضع يدها على فمها مصدرة صوتا ينم عن التقزز والتعالي على ذلك المخلوق الضعيف، وتحكي عن غريمه بشيء من الخوف والرهبة والإعجاب، نتحول بعده إلى فريقين الحمير والضباع، كنا نطارد الصابرين نكشر عن أنيابنا ونثير الرعب في صفوف خصومنا.

كم هو طاغ ومهيمن عالم اللحن، يسير بك في دروب بعيدة يأخذك إلى الخلاء هناك، تعيش الحلم وتستدعيه تصفو الذاكرة وتحلق حرة طليقة، رأيت صفوف الإناث الذابلة، تركن في طرف المجلس، تدفع فاتورة خطايا جداتها في سالف الزمن، عندما كان أسلافهم يكرهون الأنثى ويمقتونها، عندما ساح الرجال في الأرض، بعد أن خيروا بين أن تقتل أختهم الوحيدة أو تذبح، الرجال الأوفياء حفظوا وجودها عبر إخفائها من يد القتل التي واعدت القدر أن تخفي ريح الأنثى من عقبه، السلطة الأبوية القاهرة، لا يريد لهذه النبتة الهشة أن تستمر.

كان عليها أن تتحول ذكرا، ترتدي ثياب الفرسان، وتخوض المعارك وتقطع الفيافي والوديان، كثيرا ما شوهد الفتى يجوب الديار ويسابق الريح، أمرد مورد الوجه، علقت بها نشوة الذكورة، وكبريائها، فارسا بين فرسان القبيلة، وأدعياء الفروسية، السباق على أشده بين خيول القوم وأفراسهم، من له أن يُعمم اليوم، ويلبس عباءة الأبطال، كانت الحوافر بجلبتها المتلاحقة تثير غبار الواقع، وتغطي سرا كبيرا أخفاه القوم وتدبرت النساء أمر طمره، امتدت أعناق الخيل في فضاء المضمار بينما انهالت السياط تضرب أردافها المبللة بعرق أجسادها، عينا كبير القبيلة ترصد المشهد وتتبعه، لم تكن عيناه لتخطيء وتقدر صاحب الراية، ومن سيقتلعها في نهاية الشوط، توقف خفق القلوب

ونبضها حين تغلب الجسد اللين الممتزج بخشونة وقسوة ملأت الجسد إلى حين، لم يكن ذلك القوام الذي انكشف في لحظة نشوى وسقط النصيف، سالت وديان شيخها تقتلع أركان الحي وتجرف الخيام والمتاع، السيل العرم يهدد الجنسين ويؤذن بفنائهما.

شعر رأس القبيلة أنه خدع لسنوات وسنوات، كيف له أن يواري خجله هو الذي ضرب على نفسه عهدا وميثاقا أن لا يكون من نسله إلا الذكور الأنقياء، ذكور لا تسيل الدماء على أفخاذهم، ولا يصرخون وقت المخاض وعند الولادة، كيف له أن يداري عاره ويردم خطيئة من حوله، كتب في ذلك اليوم وفي صفحة وجوده، عند كبير سحرته، أن كتب عليه أن يعيش بينهن تركله نون النسوة، ويقمعه أنسهن، ضرب خطوطا مستقيمة متعامدة مع أخرى، تصنع صلبان عدة، جلست عجوز شمطاء تضرب الودع وتقرأ المستقبل، ثم تكلمت بوجع دامي، صوتها يندفع ككرات نار تلهب قلب الشيخ وتذكي ناره، ليس لذكورك إلا الرحيل والسفر البعيد لن يغسل الخطيئة إلا الغربة ووجع الفقد، سيغادرون ويغامرون، ليس لصاحبة السبق إلا أن تنفخ النار وتدمع عيونها وهي تتوجع من الأمل والألم.

غادر الفرسان، وودعوا إناثهم قلقين، لن يكون العود إلا بإعادة تركيب النسق والمنوال، ابتعد خيال الذكورة وغادر جسدها، بدأت الإناث مسيرة الخيانة، غياب الرجال، أطال سهدهن، وقرب الوساد من العبد المخصي الذي قادته الصدفة لمنازل القوم، أعادت كرتها على صهوة جوادها الأصيل لم يعد لها منظهر إلا امتطاء متن الأتن الثقيلة، البليدة، كل مطية توصل الغاية، حتى وإن طال السفر، استبد العبد بفتاته، وتملك أمرها، بعد سفر طويل وانقضاء مدة العقاب وزمن التطهير، عاد الإخوة يحملون الشوق.

ليس للعاشقين من سبيل، واكتشاف أمرهما مسألة وقت، نار العشق تزداد اضطراما واتقادا، ليس من خيار إلا هو أو إخوتها، اختارت عشيقها وسال الدم قانيا ينز من أعناقهم، ويستمر إيقاع العجوز يحكي عن مغامرات لا تنتهي عن خيانات لبنات جنسها.

ينبغي أن أقتلع كل الإناث من ذهني، وأن أترك فؤادي خلوا رحبا، ربما بهجرهن يهجرني الألم، ويغادر الخوف خاطري، ويستقر جسدي رائقا منعما، أفي مكنتي ترك ياسمين ونسيان بركة؟

9

لم تكن رحلة علاج المهدي، إلا خفقا أعاده لسالف أيامه، كانت ياسمين تأمل أن يتغير مزاجه ويصفو يومه، هاتفها قبل موعد وصوله، طار فؤادها شوقا، ورغبة جامحة لاحتضانه، مواقد جمرها تلتهب ونارها تستعر، تحصي درات الزمن المتساقطة، حولت بيتها الصغير إلى واحة اعتنت بترتيبه وتعطيره، صبغت شعرها باللون الأشقر الذي يهواه ويهيم به.

باغتته بزينتها التي اتخذتها، شده حنين طاغ، سار بعيدا عبر مجاهل وطرقات يعرف مسالكها ولم يتوقف خياله عن ارتيادها، هجرها عبر برهة من زمنه، لكنها عاودته اليوم ودون موعد، أكان عليك يا ياسمين أن تتزيني وترتدي بنطلون الجنس، محشورة بردفيك الفخمتين.

سافر بعيدا في بلاد الذاكرة، لم تكن ياسمين التي تتدلل أمامه وتتغنج، لكنها مثلها تماما ترتدي سروالا يشبهه، لباس فارسات الخيل يبدي كثيرا من مفاتن الجسد، في ذلك البلد القصي، تدرك فتاته أنها أنثى الشهوة وميراث الذكورة، لم تكن إلا بائعة للذة، تنتقم من عالم الرجال تمارس دور جدتها التي فتكت برجال بيتها، كان كغيره من الرجال هدفا مشروعا من خلاله تقتل الرجولة، بتمريغها بين أحضانها، يفقد الرجال قوتهم، كما جدهم أنكيدو عندما استدرجته الكاهنة، وبات في أحضانها، وعندما عاد للغابة أنكرت عليه مخلوقاتها وطردته، عاد دليلا يقبل يد كاهنته، بل عبد فرجها، هكذا تقول أسطورة بلاد الرافدين

في السطور الأولى لملاحم جلجامش، لقد روضته فتاته وأبعدت روح العدوانية داخله، وأزالت قلقه المزمن.

هكذا شعر أنها تهمس في أذنه عندما هم بلثمها وهي تقول:

كم من الرجال المهزومين المتوترين لا يجدون إلا جسدي الذي أحاول أن يكون مظهره رجاليا، يجدونه سدة يبسطون ملكهم بازدواجية مفرطة يقلبون جسدي ظهرا وباطنا، يستقبلونني حينا ويستدبرونني أخرى طوق النجاة لهم ومرفأ أسرارهم وصندوقه يشتكون ويشكون ممن حولهم، بل إنهم يبكون أحيانا، يسبون زوجاتهم، وينامون قريري العيون هادئين.

- كثيرون يقولون إنك ساحرة تمارسين فعل الإغواء، تسكنين غضبنا وتبددين قلقنا واضطرابنا.

- كم كنت أوهمهم بالعذاب وأقمعهم أحيانا بالتمنع، وأترك صديد شبقهم ودمامل رغباتهم، أعصرها وأضغطها ضغطا مؤلما، كي أطهر أجسادهم وأكويها، رأيت ذلك وتعلمت عندما شهقت المراهقة ليلة زفافها، وفقدت صوابها، وأوتي بالعرافة، رأيتها كيف جمعت أوراق عشبة لا أعرف كنهها ولا من أي العوالم أحضرتها، ربما سعفات من ورق ديس عين تاورغاء المباركة، وربما من براح ضريح الولية الراقدة بجنب العين الجارية تحرسها، كانت تعد سياطها الكثر ترتب أعقابها وتنظمها، وتلوح بها في سماء الغرفة، وحيدتان كنا جسدي المسجى المجرد من أثواب العرس وعرافتي الودود، أسمعها تتمتم سيجلد هذا الجسد الرخامي الساكن، وهي تقلبه بشهوة بادية، لن تكوني إلا وليمة فاخرة، لقضبان كثر تنغرس بين جيوبك وممراتك الضيقة، لن يحميك هذين الكتيبين من غزوات المتسللين، هكذا وعدنا بنات حواء، لن نكون إلا برك يبصق الرجال شهواتهم داخل جوف

أجسادنا، هوت الضربات بسياطها الكثر التي تجمعت في قبضة يدها، كان الجسد الرطب اللدن يتحول إلى خرائط بلون الدم القاني، كل ضربة تترك أثرا، ثم لم تلبث إلا أن تختلط الضربات وتتقاطع الخيوط ، ترسم دوائر حول الردفين وأعلى الفخذ وأسفل الظهر، تداخلت الخيوط الحمراء القانية لتشكل رسما عنكبوتيا، لم يزل عالق بذهني، أيقنت يومها أن العقاب يكون حلا، وأن الخديعة تشكل جزءا من انخداعنا، لم تكن خطوط العرافة إلا صبغا خادعا، ذكرني بدم الفزع والخوف والصدمة الكبرى، وأن المشهد لا يعدو أن يكون محاكاة واهية.

من يومها أخذت أصباغها واستعرت ألوانها، ورسمت بها خيوط جسدي، زاوجت بين الألوان والخطوط، وأنت لا تعدو إلا أن تكون سوطا خلبا من سياط كثيرة، ألونها بلون المكر والخداع، ثم لا ألبث أن أفركها بالماء الفاتر، تتسلل عبر مواسير الصرف النتنة، إنني أجلد الذكور جلدا ناعما متواصلا، أرسم تلك الخطوط الحمراء الملتهبة على قفا أولئك الإناث المظلومات، لأكمل خيوط عنكبوتي حيث يتوهم الذكور اللذة المفرطة، يتغلبون على الخوف، يفرجون كرباتهم وثقل يومهم، أمارس دور جداتي الموتورات، دور المانحة للذة والحياة، دور السكينة والمدنية.

قالت رفيقتي في ليل المدينة الثلجي، أتظن أنه يقع على كاهلي تهذيب سلوك الرجال جميعا؟ وإخراجهم من أحراش الغابة ومعاشرة الوحوش، آخذكم إلى عالم السكينة، عليّ أن أخطط لبناء معابدي عند أطراف الغابات وعند المرافئ البعيدة، أطفئ لهيب الأجساد المغامرة والمشاكسة، أسكب كؤوسي على أفران اللهب ونيران الحياة، وأتخفى طول العمر في توب العرافات، كي أستطيع أن أجمع العسل من بيت الدبابير، وأن أحول المعادن الرديئة إلى معادن ثمينة.

لم يكن المطلب عسيرا ولا شاقا، مزج الجسد بالروح، واحتضان المريدين لصونهم من الفتن والغدر والكيد، ترويض الأرواح الهائمة، وإخفائها عن العيون الراصدة والمآقي التي تراقب، بيوتنا مآوي للخائفين.

كم من أياد للخير مددناها، لنحمي ما بين أفخاذ بنات جنسنا، صرنا نحول تجاربنا إلى تعاويذ تحمي أجسادهن الطرية، لينطلقن غزلانا ترتع في المصائف وبين أروقة الكليات، تفور أجسادهن بالشهوة والاشتهاء، يمرحن وهن في مأمن من غوائل تهتك أغشيتهن الرقيقة الحاملة لمعنى الشرف والطهارة.

لم يكن الوصول سهلا وميسرا، فالطريق إلى الصفاء كان شاقا وطويلا ومؤلما، بقيت في المغارة ثلاثة أهلة من المحاق إلى المحاق ومن البدر إلى البدر، لا أسمع صوتا أو لاغية تتلوى أمعائي من الجوع، تتربص بي الجرذان وتحيط بي الأفاعي، كان تجليا رهيبا، أن تبقى مستيقظا بحواسك تحادر الخطر حينا وتتلو ماعليك تلاوته حتى يتجلى المٌغيب ويظهر المستور.

لم يكن الاختيار والاختبار سهلا ولا ميسرا عندما أخرجت من القبر، لوني مصفرا، طالت أظافري وتخبل شعري، انكرت نفسي على ما في نفسي، الشحوب يغمر الجسد، العينان بارزتان كما ضفدع جفت مياه البركة من حولها، حاولت القفز خانت الركبتان الجسد وخدلته، النهدان الضامران والمتهدلان، لم يعد بإمكانها لقم الحياة، أنكرت على جسدي ما كان من جسدي.

ـ عندما تلقفتني يد المعلمة ضاحكة مستبشرة، تهنئني بالسلامة من سفري البعيد، مبتسمة متهللة، علمت أنني صرت أملك قوى خفية، ستتدبر قادم أيامي، وتلون حياتي، بألوان الطيف السبعة، وأن أقواس

قزح كثيرة ستكتب في سمائي، وعواصفا ورعودا ستعصف بي وبمن حولي، وأن زخات من المطر الجارف حينا ستغمرني، وأن غيثا هاطلا سيبلل كياني، تحول جسدي كونا كاملا احتواك أيها المسافر في ليلي، جذبك قوس قزحي بألوانه السبعة الزاهية، ستدور مع استدارة أقواسي الكثر، سأكون تميمتك التي لم تفارقك، ستضاجعهن وصورتي ماثلة بين دراعيك، صرت قدرك الذي لن تحيد عنه، حتى وإن تناسيت.

ياسمين تتلوى من فرط اللذة، وهو مسافر بعيدا يرقب كاهنته المرعبة، وهي تشاركه مخدعه، لقد أرسلت سهامها الكثر وباشرت طغيانها الأثيم، شعر أنه في أمس الحاجة لمن يخرجه من حفرة الضباع، وأن تلبسه تلك الغجرية اللعوب، خرقة القماش الحمراء، على أعلى زنده، وأن يبصر الكون من خلال أست ضباع البراري.

10

في الليالي التي تلت سفره إلى الجبل، انشغل بمرض صديقه رمضان الذي فاجأه على حين غرة وعاوده بعد حادث السير وأخذ مساحة واسعة من جسده المنهك، كان سيل من الأصدقاء الذين قدموا لمواساته والسؤال عنه، كان هادئا يرسل بصره في أرجاء غرفته ممددا، علته صفرة طاغية، كان واهنا رغم ابتسامته التي لا تفارقه.

رمضان الصديق الذي عرفه في المرحلة الجامعية، ورافقه عديد المرات في نزهاته داخل المدينة، وفي الصباحات العليلة، عندما يعرج عليه في بيت السكن الجامعي، شعرت وأنا أراه ممددا، بالضيق النفسي الذي ألم بي امتدادا لما كنت أشعر به من قلق لازم ذاتي، هكذا أسرت ياسمين في أذني أنني بدأت أهذي في نومي، وأنني أقوم مفزوعا، حشرجاتي تشبه أصوات يصدرها حيوان جريح، كنتَ تتأوه وتتألم، بلغة أقرب إلى الهمهمة، وإلى الأنين، هل كنتُ حقا أتنبأ في عالمي الباطني، بأن فقدا كبيرا سوف يحدث في حياتي.

رمضان لم ألتقه لفترة طويلة، ربما آخر مرة التقينا عند رجوعه من رحلة إلى تونس، لم أشأ أن أطلب الحديث عن سفره المعتاد بعد أن وطدت علاقته بحفيظة تلك الطالبة التونسية الفاتنة، التي كانت تدرس التاريخ، والتي تناقش بحماس موضوعات السياسة والفن والموسيقى، كانت الأحاديث تأخذ وقتا طويلا في مقصورات كلية

التربية، تلك المقصورات الزجاجية، التي خصصت لطلبة الدراسات العليا، والتي تمنح الخصوصية لمرتاديها، وتجعل المناقشات والمناظرات لا تنتهي إلا لتبدأ، قيل يومها أنها كانت مبعدة من تونس زمن بن علي نتيجة انتماءاتها وتوجهاتها الإسلامية، لم تكن مليحة تونس إلا جسدا ممشوقا يرتدي بنطلونا عصريا، كنا نبحر كثيرا في أزرار ثوبها ونستمد منه رغبة جامحة في الاطلاع والاستزادة.

شبابا لانعرف من التدين إلا مظهره فالمحجبة وصاحبة النقاب هي من نصنفها وننعتها بالتوجه الإسلامي، كانت حفيظة، نوعا آخر لم نألفه، تذرع التاريخ الإسلامي وتسافر عبر نصوصه، وتتعامل مع مفسري النصوص بعقلية مخالفة لما ألفناه، نسافر معها مع ابن عاشور، وتعود، وتنثني على ابن خلدون، وتؤيد رؤيتها لمجلة الأحوال الشخصية مدعمة بأقوال المالكية وفقهائها، كان ابن العربي وسحنون حاضرين، كما يحضر الشابي والمسعدي في حديثها.

رمضان يجيد الاستماع أكثر من الحديث، لكن هدوءه هو في الغالب الذي يهدئ العواصف التي نثيرها، كنا نشعر بانهزام معرفتنا مقابل عالمها المنفتح، كنا كثيرا نخطط لانسحابات تكتيكية، نثير الغبار، من حولنا، فترتفع أصواتنا، وغالبا ما ينهيها رمضان بالدعوة إلى فنجان قهوة في كافتريا الكلية، كانت الصبايا يتوزعن المكان، عندما ننحدر مع السلم باتجاه المقهى، الذي يقع في الدور تحت الأرضي، وقبله نعرج على الباحة والفضاء الرائع الذي تتخلله أشجار كرمة الظل المتغولة، بينما تبدو شجرة التين اليانعة تتوسط الحديقة التي تفصل المكتبة عن مدرجات الكلية، حيث يقع خلفها المدرج الشهير، الذي احتوى في تلك الآونة مجاميع تروج لساسة النظام، وتتحكم في تصريف أمور الكلية، كانت شعورهم الملبدة، واللولبية الطويلة بعضها ينسدل على الأكتاف، وآخرون تبدو كما شجرة طلح

نامية على أطراف الوديان، تأكل الإبل ما تصل إليه وتترك فروعها السليمة تمتد في الآفاق دون انتظام، في شتاءاتهم يرتدون الشالات الطويلة الخضراء التي تلف أعناقهم ساعات الصفو والراحة، وتتحول إلى عمائم قدت بآليات الوديان والرمل، يتكلمون دون أن تفتح أفواههم، ينشطون في مكاتبهم، التي تمتلئ بإناث مخضبات يسرن في ممرات الكلية، بزهو باد، ويضعن المساحيق، ويضحكن ضحكا ماجنا.

يتحدثون عن لقاءات ومسيرات لا تتوقف إلا لتبدأ، يتنبأ الطلاب ويعرفون مواسمها، بعضها تحكمه دورة الشمس، وبعضها يحكمه الحدث، والشأن الليبي والمحيط العربي، فمثلما تخرج الجموع تهتف بموت فلان الخائن، تجدها تخرج في مسيرات تأييد للموقف المساند للحركة الشعبية في شيلي، أو لحركة الفهود السود في أمريكا، لا يستطيع أي خبير التنبؤ بيومك داخل الجامعة، فلربما تتوقف الدراسة فجأة ويفر الطلاب في كل الاتجاهات ويختبئون في مزارع الجامعة، في حقول الزيتون والبرتقال.

في ذلك اليوم الربيعي الهادئ بعد أن اطمأن الطلاب إلى انتهاء الأيام الطويلة والقاسية على الطلاب الحقيقيين الذين غادر الكثير منهم من يقيمون خارج المدينة إلى مناطقهم، إفساحا للفاعلين للاحتفال بيوم السابع من أبريل، وفي العودة يسأل الطلاب بعضهم عن الحصيلة السنوية، فيقولون تم اعتقال فلان، ويضحك آخرون هل تعرف فلان القادم من الجبل، الذي يدهن شعر رأسه بزيت الزيتون، وتتنزل طرته تغطي جبهته، نعم خليفة على ما أظن، لقد أوسعوه ضربا وشتما وأجبروه أن ينادي بصوت عال باسم كبيرهم، كونه بقى في القسم الداخلي ولم يشارك، ولولا تدخل ابن قريته في الأمر لكان طرد أشر طردة.

الأيام التي تلي عواصفهم تمر هادئة، لم نعد نسمع طرق أحذيتهم ذات الكعوب العالية، ولا أصواتهم المخنوقة التي تخرج من محاجرهم وتخرج حروفهم نتنة مقرفة، تجبرك على التعفف والتأفف كما أجسادهم الكريهة، اتركوهم ينامون قليلا بعد جهدهم المقيت لتستيقظ الجامعة ولو إلى حين، نشاطهم موت للحياة ونومهم حياة لنا.

في فناء المقهى جلست حفيظة، في جانب وبمحاذاتها عجيلة، التي عشقها الكاتب المغمور حينها، والتي نظم فيها القصائد، ودبج المقالات باسمها في الصحف الخضراء والصفراء، واستعطف الشعراء وبث شوقه لهم ليخرج شعرا مصنوعا يتباهى به في الممرات وعند كعاب الكتب، وكلما نظم شوقه وطرز مشاعره، تزداد أنثاه بعدا، حتى غدت لا تطيق رؤيته ولا يتحمل بعدها، تتعمد إهانته، في كل مجلس، يلهث وراءها ككلب ظامئ، يرتشف قطرات الماء من درات الهواء الساخنة، كنا نرى لسانه يندلق ونسمع لهاتهصريرا باكيا وألما مبرحا نسمعه عند المساء ونلمسه بابتعاده الدائم عن وجباتنا المعدة إعدادا سيئا، يستلقي على فراشه عيناه مسلطتان على سقف الغرفة، يطير بعيدا ويحلق عندما أريته صورتها وهي ترقص في عرس قريبتها، لم تصل الصورة بمحض الصدفة، في ظهيرة تسكعية في أروقة الكلية جلسنا أنا وعجيلة وحيدين، أخبرتني عن تغيبها وسببه، وصفت العرس بأنه أسطوري كما قالت، رقصت حتى كل متنها، ودون طلب مني أخرجت صورة تتبدى فيها فتاته بفستان فرح دون أكمام، كان خصرها النحيف مطوقا بنطاق أظهر وسطها بجلاء، الجسد يثتنى، ودراعها المكشوف، يدها تمتد في الأفق وقد انحنى كفها وكأنه يشير إلى جسدها، الصورة بدت رائعة تكاد تتكلم وتنطق، لم تكن فتاته جميلة ولا فاتنة، ولكنها بدت لي مغرية جاذبة وربما فاتنة، استشعرت بوادر الفوز على وجهها، قالت: إذا أعجبتك فلا مانع أن تحتفظ بها على أن تبقى لك وحدك، كانت صورتها وليمة لرفاق السكن، أخذها الشاعر

وضمها إلى صدره وهلل شكرا يا حبيبتي وشكرا لك يا ساعي البريد، فقد أوفت بما وعدت، عندما رابني ما بينكما، وصارحتها، قالت لا عليك سأجعل من صاحبك رسولا ينقل لك ما أكنه لك، وهيهات أن يفهم شاعر غير الرسالة التي يرسمها قلبه وتنسجها كلماته وترنم ببيت شعر وهو يحرك حاجبيه بسخرية:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا||| ونحن سكوت والهوى يتكلم

رمضان كالعادة لا يفارقني، يجلس ملاصقا، وعلى يميني، يجلس طالب الدراسات الإسلامية، المشهور بنكاته البديئة، ورؤيته المتعالية عن الأنثى، والذي يحقق مخطوطا في الدراسات الفقهية، كان كثيرا ما يتجنب الحديث مع حفيظة منعا لنفسه من الإحراج، حيث في الحقيقة هي الفقيه والعالم، كانت شطائر الخبز المحشوة بالهريسة التونسية الرديئة، وبدهان التن، هو أقصى ما يمكن الحصول عليه من وجبات، أو شطائر بالبيض المقلي، ربما الاستثناء الوحيد عندما تحضر شيرين ذات الأصول التركية بقوامها الرشيق ولباسها المميز كانت تنورتها القصيرة تبين عن ركبتين كالمرمر، وشعرها الأشقر الفاتن، تعد لنا شطائر من عالم آخر بمذاق لم نعهده في بيوتنا ولا في رحلاتنا، قدومها يعني تبدلا في جدول حياتنا، تسكب الشاي والقهوة في آنية نظيفة، وغالبا ما نشعر أنها تتصدق علينا، لكن الحقيقة أنها كانت سعيدة برفقتنا، وبأحاديثنا التي لا تفقه منها شيئا، ترطن بلغات عدة في زمن مزقت فيه كتب اللغات ومنعت، تتحدث عن معزوفات وأنغام تعزفها على آلة البيانو في بيتها في حي الأندلس، نغرق معها في عالمها الوردي، ونسافر آلاف الأميال في عوالم يصنعها الخيال، وتؤججها قراءات لعالم الرواية والقصص، حقا كانت سندريلا الأحلام، أكواب الشاي مترعة ساخنة، لا تستطيع الإناث مسكها فالورق الرقيق والسيئ هو طابع المرحلة.

قالت حفيظة ها "سي المهدي" رأيتك تقرأ كتابا في النقد الأدبي، وتستغرق فيه بكامل جوارحك، نظرت إليها بشبق باد، وبكلمات متدفقة، وما عساني أن أقرأ غير كتب الأدب والروايات، وقصص وأخبار الأولين.

ـ أشعر أنك غريب تعيش بين رفاقك، وأنت تسافر في بحر الآداب، وأنا عاشقة للكلمة، تدللني بعيدا في أسفار أسرج لها جوانحي وعقلي، عندما أهم بدراسة الأدب أكون قد دخلت في إعداد روحي وأصقل ذهني، حتى لا يفوتني عبق الكلمات، ومتصوراتها، أشعر أن كاتبي النصوص جزء من كياني وأتساءل هل كان المبدعون غرباء؟ وأن نتاجاتهم وإبداعاتهم، لم تكن إلا هروبا من واقعهم، هل حقا كانوا غرباء ومغتربون، ولأجل هذا يغرق المستهلكون من أمثالي ويهيمون في عالمهم ويسبحون مع رؤاهم.

كنت أعلم جيدا وفي مطالعتي أن الأدب مرسل ومستقبل، ولولا جمهور القراء الرائعين ما كان للكتابة قيمة، حتى عندما كان الإبداع شفويا مرسلا في نغمات آلته الموسيقية، يقص حكايات الأمة وأمجادها يفجر سماء معتقداتها، ويستظل بخرافاتها وأساطيرها، كانت الساحات تمتلئ والطرقات تعج بالقاصدين، ينطلق الشعر عذبا صافيا يرضي كبرياء القوم، لم يكن الأدب صامتا كصمتنا في ردهات المكتبة، كان أدبا مدويا مصوتا، يتلى على نغمات الطنبور، وعلى صناجة الشاعر، كم أفتقد صناجة العمى، وطنبور الحكمة، لكُنت زوجت بنات أفكاري التي أرهقت ذاتي، ولم تجد عاشقا يحتضنها، أو صناجا يروج لها.

ربما اليوم نحن أكثر قدرة على التفكر والتأمل، وإعادة الإنتاج، وربما التأويل، كانت حفيظة، تسكب آخر قطرات الكوب في جوفها، وهي تشير إلى أن لابد لصوت المغني أن يترفق فأصوات

المغنين لا تناسب بأي شكل فن الرواية والقص، لن نكون مكبلين على كراسي نستمع إلى ممثلين على الركح، أو راو يسرد لنا معجمه العتيق والبالي، في أحداث تتشابه وتتكرر في سير الأولين وملاحمهم، يامهدي أنا اليوم فخورة بأنني أستمتع بالنص، وأصل بعض أغراضه وأنا في درجة قصوى من الحرية والمرونة، وربما الاسترخاء.

فجأة ودون مقدمات انتفضت عجيلة كأن مسا أصابها، تسب شيخ المجموعة وتلعنه، كانت قدمه العارية تتسلل من تحت المنضدة لتستقر بين أفخاذها، لا أدري هل كان الخوف من الجسم الغريب هو الذي أفزعها، أم أن قرصة إبهامه التي قبضت على اللحم الطري، خشونته لم تمنع لين جسدها من شد كلابه على فخدها، لابد وأن الفكين كانا مرعبين حد الصراخ، كانت الأصابع عطشى وقوية، وكان الغصن لدنا ورطبا، لا يستطيع تحمل أجساد الفيلة، فقط هو للتسلق برفق كما سحلية أو ثعبان يتسلل بين الأفرع الغضة والطرية ليصل إلى أعشاش العصافير وبيض الحمائم.

تشتت جمع الرفاق، وعدنا أدراجنا صوب غرفاتنا المغلقة، كانت حفيظة تضحك بخبث ودلال، وشفاهها الموردة وخصلات شعرها الأشقر تطوح بعيدا في عالم الأدب وأحكام الفقهاء.

تابعت حديثها، ونحن نتمشى في الممر الطويل وكأن شيئا لم يحدث بل شعرت بارتياح بالغ فقد تخلصت في دفعة واحدة من طالب الدراسات الإسلامية الأحمق، ومن الفتاة التي تبحث عن عريس ضمن الرفاق.

تابعت هل تعلم أن النص اليوم نأخذه بالتجزئة، بمعنى أنني لست ملزمة بالاستماع إلى العمل دفعة واحة، الإبداع بين يدي روايتي التي أريد وأعشق بين يدي، أقلبها كيفما أشاء، أقلبها مستلقية، وأقرأها

جالسة، مقيمة وظاعنة، مطلق الحرية أمتلكها، أن ألقي الكتاب جانبا وأن أتسكع داخل الجامعة، لن يؤثر شيئا في مشروعي القرائي، لن يفوتني شيء من العرض. هذا لا يتأتى عند متابعة مسرحية أو شريط سينمائي، أو سماع سيمفونية هادئة، أو حتى مشاهدة صورة.

كنت أستشعر الغربة تماما كنصوصها التي تتحدث عنها، وتمنيت أنها تستطيع إعادة الحياة كما تبعث النصوص وتعاود الحياة، ليتني كنت نصا مغلقا ينتظر قارئا حصيفا يحينه ويعيد له الحياة، ويستطيع أن يفتكه من أسره الطويل والمزمن.

لم تسمع مونولوجي ولم تكثرت لشرودي، العمل الأدبي يحفظ الوجود بواسطة العقل، ولنا في الآثار الخالدة، لأجناس مختلفة احتفظت بوجودها بل ربما تكون مقياسا لما سيحدث في عالم الأدب والنقد.

كان رمضان يمَلُ من حديثنا ويود أن ننهي ما بدأناه، لذا اقترح أن نكمل يومنا نتسكع في شوارع طرابلس، وأن نقصد المدينة القديمة، وننعم بوجبة من مطعم شعبي، رحبنا بالفكرة، واتجهنا صوب محطة السيارات للكلية.

لم تتوقف حفيظة عن رسم عالمها وأفقها الممتد تصنع رؤيتها للفن والأدب، كنت خجلا كونها تفصل القول وتطرز الكلمات وتقدم تصورا لما كان عليه الأدب وما سيكون، طفقت تسافر في عوالم الملاحم، تارة ترسم أخيل، ثم لاتلبث أن تسافر مع أوديسها وتغرق بحارتها، ترنمت بأغنية لا أدري لما خطرت ببالها:

يا مريم وعلاش دلالة

يا مولاة العين الذبالة

كان رمضان يضحك من كل قلبه عندما تنطق ذالها لا لبس فيها، كنا نسرع الخطى نتقي شمس الظهيرة، عندما صعدت العربة، خففت من بعض ثوبها، بدت تفاصيل جسدها، وحمالة صدرها، تمنى رمضان أنها لم تفعل، لكنها لم تكترث. أنزلت زجاج نافذتها بحثا عن هواء بارد، بدأ ينساب مع النافذة، قالت وهي تضع كفيها على طرف الكرسي، إن الأعمال الأدبية الخالدة هي ميراث عالمي، عمل صالح لكل الأزمنة والأمكنة.

وجد رمضان الفرصة للحديث:

هذا يعني أن أي شيء يمكن أن يقال، ويمكن أن يكتب، بكل بساطة ما يمكننا قوله يمكننا كتابته، وترنم بمالوف لموشح أندلسي، وهو يترنح ويضرب بكفيه مقود السيارة، وأخرى على زجاجه، وصوت فيروز يصدح:

في ليال كتمت سر الهوى

بالدجى لولا شموس الغرر

مال نجم الكأس فيها وهوى

مستقيم السير سعد الأثر

حين لد النوم شيئا أو كما

هجم الصبح هجوم الحرس

غارت الشهب بنا أو ربما

أثرت فينا عيون النرجس

زاد الإيقاع وأسرع عندما وصلت فيروز للمقطع

بالذي أسكر من عذب اللمى

كل عذب تحتسيه وحبب

والذي كحل جفنيك بماء...

سدد السهم فأصمى إذ رمى

بفؤادي نبلة المفترس

تضاحكنا رمضان بجدل وبطرب قال:

لا يمكن لهذا الإبداع أن ينتهي أو يتجدد، ما وصل أسماعنا وتناهى إلى أذاننا لم يكن إلى نغما يرتل ويسمع في العالم كله، لقد مزج الغناء بالشعر وتكفلت الموسيقى بلم شتاتهما، لقد رحلت الأندلس بعيدا وضاعت، لكن موشحاتها لازالت تطرب أسماعنا، وما نزال نستخرج منها التجارب ونعيشها، لا يختلف شعور الشعر الغابر ذاك الشاعر الذي يعشق ويحب، وتستجيب له اليوم أنفسنا، وأرواحنا ونعيش التجربة، ذاتها متمنين الوصل والوصال.

كانت المدينة غارقة في فوضاها، سلك رمضان دروبا جانبية، وطرقا خلفية، في شارع السيدي، العربات تملأ الطريق، تجمع حشد من البشر، يتقدمون زرافات، علا بعضها البسمة الماكرة، وأخرى تبدي امتعاضا، توقفت الحركة تماما وأقفل الطريق، ترجل الكثيرون محاولين التعرف على ما يجري.

البلاد التي وضعت القرآن شريعتها، وامتلأت الطرقات بلوحات تحمل الشعارات، والقيادة الإسلامية تباشر فعلها على الأرض، كان الشاعر الذي انطلق يرهف الآذان ويشنف الأسماع بعذب قصائده التي غناها كبار المطربين غنى الشاعر للحب والمشاعر، عن هجر

الحبيب، والفراق، وعذابه، سافر متأبطا قصص العشاق، رسم أطواقا لحمائم، مالت العذارى منتشية بما تسمع، صدح فرسان الغرام والحالمين بكلماته، لم يكن إلا ملهما يعشق الكلمة تدب أرواح الناس في نصه وتحيله عذبا ثريا، يسكب في منابت الإيقاع، لم تكن الجموع الشامتة إلا تخلقا جنينيا لرياح تتشكل في سماء البلاد، وغيوم بدأت تلوح في أفق بدا مخمليا ناعما، يداعب خيال الكثيرين، كان الشاعر بجسمه النحيل، وجسده البرونزي، ينظر من على المنبر المقام يتأمل في شعبه الذي طالما أطربه وسكب له الكلمات من عمق تجاربهم، فلقد أطفأ نيرانا وأشعل أخرى، تبادل المتيمون والعاشقون كلماته، وسربوها عبر اشرطة الكاسيت، وأجهزة الفيديو العتيقة، صاح صوت من بين الجموع القصاص من شارب الخمر، المنتهك لحرمات الله، عيون الشاعر التي بدت أكبر من عالمهم وأوسع من الساحة التي حشروا أنفسهم فيها، نظم في تلك اللحظات عشرات القصائد سافر بعيدا، رأى نفسه يجتاز هذه الجثث المهترئة، كان حذاؤه يطأ هاماتهم دون أن يشتكوا، يحاول أن يكون وقع أقدامه سهلا ولطيفا، قبضاتهم التي تلوح في الهواء وتندر بأشد العواقب، رفعته بعيدا تسبح في ملكوت الله، لم يكن حاضرا بينهم، روحه تحلق بعيدا، على ضفاف أنهار لم يروها ولم يحلموا بها، وعناقيد عنب أبيض، دنا وتدلى، الأصوات المخنوقة ترتقع وتنخفض حينا، أقلقهم عدم اكتراثه وطمأنينته، لقد تعود على الجلد، ثم إنه لا يعبأ بالفضيحة ولا يكترث لها، هكذا خيل لهم.

سمعنا القاضي يقرأ من ورقة سحبها من ملف غليظ، بني اللون مكتوب على واجهته، اسم المتهم واضحا جليا تقرأه الجموع دون احتمال أن تخطيء عين وتغيب ذاكرة، بدا واضحا أن جمهرة المتابعين قد تسرب إليهم أخبار تنفيذ القصاص، كانت الإدانة واضحة لا لبس فيها، والقرائن بائنة، كذا التحاليل المخبرية، كان الشاعر يبتسم في سخرية مما يحدث، لم يكن من يقرأ الأحكام ويبادر إلى تطبيقها إلا

رفيقه ونديمه، في أيام سعده، لم يكن نادما على رفضه التغني باسم الأممي وتمجيد السيد، قال وبكل بساطة، أنا شاعر الحياة وأنتم تصنعون الموت، أنا شاعر الحب وأنتم تفرخون الكره، أنا أمجد الأنثى وأتعشقها هبة من السماء، أضعها بعيدا عند النجوم البعيدة، أبصر شعاعها ضئيلا يتسرب برفق داخل عالمي، أترصد مواقعها، وأتخذها هاديا ومرشدا، حتى عندما تحجبها غيومكم الثقال، أصنع خارطتها أتشمم عرقها وأسكر، أسكب لذتي عبارات تتمايلون طربا وترقصون رقصاتكم العابثة، حتى في مجونكم ولهوكم وأنا معكم من اللاهين، لم تكن إناثي المدللات، بشبقهن المصطنع، وصرخاتهن الكاذبة إلا تمثلا ومحاكاة للأنثى الطاهرة الصافية، لم تكن لياليكم إلا انعكاسا لآمال غادرتكم سريعا.

ليتني أقدر أن أصارحكم أن هذه المسوح والطقوس، والسياط المرفوعة في وجه الكلمة، لم تكن تطلب جسد امرئ قد أخذ من النشوة كأسا مترعة، كأسكم المتخومة بالكذب والعار والنفاق هي التي تشربونها كل يوم.

الشرطي يجرد الضحية من قميصه العلوي، ويتعرى قلبه النابض بالدم المتدفق في عروقه، لايزال ينفث إكسير الحياة داخله، لا مست السياط ظهره دخل في دوامة عد السياط، واحد اثنان عشرون ربما خمس وعشرون، انهالت السياط، وفقد القدرة على العد، رأى وجوه القوم من حوله سوداء علاها السحام، واختلطت عليه أصواتهم، يسمعهم يسبون ويشتمون، ويكبرون أخرى، سمع هتافا لحامي الشريعة زعيم المسلمين، شعر بالألم يخترق أضلعه، تصبب العرق باردا أحس به ينساب على وجنتيه، الدم الأحمر القاني ينز من ظهره المتيبس، لم يعد يرى اليد التي ترتفع وتهوي في مهارة بادية، كأن يد جزار القرية وهي تخاتل قطع اللحم وتنغرز بلطف ساحر عملية تشريحية، كانت

الضربات المتقنة، يسحبها الجلاد سحبا ليطيل مدى المعاناة، حيث يلامس وسط السير الجلدي في صعقته الأولى اللحم المتفسخ، ليجذبه في خفة بادية نحو جذعه المنتصب ليكمل السوط نصف الدائرة المغلقة، ويتواصل اللحن، وينتشي المراقبون بمشهد التغير والتبدل للجسد المنحني.

صرخت حفيظة في وجوهنا هيا لنغادر، يبدو أن المشهد استهواكم، كنا نتراجع للخلف وعيوننا مسلطة على نز الدماء، لم يتأوه الشاعر ولم يصرخ، كنا نراه يسبَح بعيدا في عوالم حاولنا الوصول إليها عبر عينيه اللتان تحملقان في الجمهور حتى بعد أن غاب في غيبوبة، أنزل الشعر، بكت حفيظة بحرقة، ندمنا على ترجلنا وسوقها معنا، في السيارة كانت لطيفة التونسية تدندن بألحان محمد حسن:

دللتني وزهيتني

وآخر طريقي معاك وسط الطريق خليتني

ياريت يا ريت مادللتني

ياريت مازهيتني

ياريت ياريت

دللتني في أول دلال فاحت جناين روحي

خليتني بعد الدلال نمشي الطريق بروحي

نمشي الطريق بروحي

ما كان في حسابي أنا عمر الغلا رحلة قصيرة

كم كان في حسابي الغلا شط الحياة واجمل جزيرة

دللتني بوِل غلا عمري بدا يغزل نواوير الزها فايح ربيعة

دللتني صرنا سواء إنت ونا نبني على شط الحياة دنيا وسيعة

دللتني وياريت بعد الدلال ماغبت

ما تقول يوم زهيت بحداي ولا طربت

لا تقول يوم القيت نبع الحياة وشربت

كيف الخيال بقيت وتقول شمعة ذبت

ياريت...

بدت طرابلس كئيبة حزينة، هبت رياح غربية محملة بالأتربة والغبار، كانت الأوراق تتطاير في الطرق وأكياس النايلون ظهرت كقطع الصوف تتماوج وتسير في حركة لولبية حتى يستقر بها المقام في زوايا الأرصفة، تابعت حركة قنينة بلاستك تتقاذفها تيارات الهواء تندفع ثم تتراجع تدور حول نفسها، رأسها الذي يحمل الغطاء يجبرها على الحركة غير المتوازنة، وكأنها أعرج في حفل صوفي، لم تتوقف القنينة عن الحركة ولم تستقر، حركة دورانها العبثية، دون جدوى ولا فائدة، رأيت بلدي قنينة بلاستك فارغة تدروها الرياح، لو كانت ممتلئة لما عصفت بها الريح، لم يكن الامتلاء إلا في عيون الشاعر الشاردة، كلنا قناني فارغة ترغمنا رؤوسنا الثقيلة على حركة شاذة، يرتفع جدعنا قليلا بينما تظل أقدامنا تطير في الفضاء.

الوقت يقترب من العصر أقفلت المحلات وبدت طرابلس مؤصدة الأبواب مشرعة الطرقات، العمد واقفة ساكنة، أنهارالمدينة جافة ودفق العربات ضئيل، تبدت المدينة أثارا ورسوما مطمورة وبقايا حياة تحاول الاستمرار، كل شيء معرض للفناء والبلى، غاب جسد

الشاعر وتلقفته أيادي الحرس، وربما رجع إلى أهله تنتابه الحسرة والألم، بقت أجفانه لا تتحرك، بينما ظلت أشعاره تتناقلها الركبان، سيبقى نص الشاعر تميمة سحرية نمارس إيقاعها في صمت، ونستدعيها ساعات الفرح والكدر، نتمايل طربا، في فعل يجعلنا نطير أحرارا طلقاء، لا تستكين الكلمة لفكرة أو ايدلوجيا لأنها من تخلق الفكرة وتبني صروح الأيدولوجيات، فما دُوِن وكتب من التاريخ يمثل حضورا، بينما يد الجلاد تمثل غيابا، وسلطة النص، تمارس قوتها، تململت حفيظة، وكأنها ترسم مشهديتها، وتتابع أفكارنا دون أن نتكلم، ما رأيناه اليوم لا يعدو أن يكون قراءة تحيينية لنصوص ربما لم يحسن المفسر قراءتها، أو أن حواشي قد أضيفت لوقع الحقيقة الغائب، ينبغي أن نعطي القراءة حقها في قتل النصوص وإحيائها، ومن العدم والموت إلى الحياة ومعناها.

الشوارع الخالية قادتنا إلى التفكير والبحث عن مرفأ يعيد للأنفس شيء من هدوئها، عبرنا راجلين بمحاذاة السراي الحمراء، كانت المحلات والمغازات شبه خالية، مررت بصديق من أبناء مدينتي، كان يمتهن بيع الذهب، بقى متشبثا بمكانه، بعد أن وجد مخرجا برخصة تصليح، وصياغة الذهب، حيته حفيظة، وقايضته بشيء من خواتمها، وعقدا صفقة، على أن تعود في اليوم التالي، تكفل رمضان بالعودة والحضور، وربما الدفع، كما هي عادته دائما، كان مقهى الساعة المقهى اليتيم الذي بقى فاتحا أبوابه، الحصر والكلمان تغطي جدرانه، والأواني النحاسية الصفراء تجوب الكراسي الواطئة، قليل من بقايا المثقفين المرهقين يتبادلون الحديث ويتهامسون، بالصدفة كان لقاؤنا مع علي الباشا كاتب وقصاص ومؤرخ، شديد الذكاء والفطنة، عرف بنكاته السياسية والاجتماعية، دعانا لمشاركته مائدته، تحدث عن تونس وأدباء تونس، والعلاقة المتينة بين البلدين بقينا صامتين، نستمع تماما كجلوسنا في قاعة المحاضرات، أسرف الكاتب في ضيافتنا وبالغ، بعد

أن عرف أننا طلابا، وتفضل بدفع الحساب، كانت اللوحات تتزاحم على الجدار لفنانين محترفين، بعضها كلاسيكي وتجريدي، وآخر كان فنا لرسم الحياة الطرابلسية، أشارت حفيظة إلى إحداها، كانت لفتيات يقفن أمام شباك مفتوح، يدردشن مع فتاة أخرى، داخل المنزل، كان نصف جسدها يبدو خارج الجدار، وكأنها تؤشر لخيال بعيد في نهاية الزقاق، الذي حاول الفنان أن يضع أبعاده من خلال أقواس متتالية تصغر في عين الرائي وفي آخرها يبدو شخصا ما يلتفت إلى الخلف، كانت الصبايا في الخارج تنم عنهن ابتسامة فاترة، بينما دراع الصبية العاري، وسبابتها الطويلة تتجه صوب فضاء الزقاق الطويل.

قالت حفيظة:

هذه الصورة تأخذ طابع الشمولية، تحاول أن تجيب عن أسئلة المتلقين المركبة.

ـ ربما ظننت داخلها أن فهمي جاء مكتسبا عبر سلسلة من التلقي، وأني أستشعر الجمال واتشربه من خلال التأويل.

قال الأديب الكهل إنني أحاول أن أنصف اللوحة، وأنني أنشد المعنى من خلال الفهم، لم تكن اللوحة إلا نقلا واقعيا لآلاف الحكايات والقصص عن غرام يولد وآخر يموت، وأجيال تأتي وتنتهي أخرى.

كان الشباك يفتح البيوت على محيطها وتترع المقل من العابرين، وتطير قلوب الإناث وتنطلق ألسنتهن.

لم يكن الأديب الكهل إلا تكرارا لفهم قديم الذي يتغيا فهم الصورة أو الفن، أو ربما تسهيل فهمه من خلال الشرح، كانت حفيظة تبحث وتحاول إعادة بناء الصورة والبحث عن نقاط تكاملها، تساءلت في جدية بادية بلغة لم نكن نفقهها، لم يكن الفنان الذي رسم الصورة

وانتهى من عمله وبدأ مرحلة التلقي يعتقد أن رسمه سيحتفظ بعذريته، وأنها لن تمثل إلا إرادة راسمها ومبدعها، لن يكون لهذه الصورة معنى، إلا إذا أبعدناها عن سياقها الأصلي، ولن نستطيع فهم رسائل الفنان والمبدع إلا بإبعاده عن بيئته، الفن إعادة إبداع، ليس الماضي هو الأصل في العمل، وإذا سلمنا بهذا وافترضناه، فذلك يعني أننا ننقل معنى ميتا.

بدأ ثقل الكلمات ينزل على الحاضرين، وأخذ منهم الشرود مأخذا، أيقن المهدي ورمضان أن ما يتعلمونه داخل قاعات الدرس ليس إلا انفصالا عن عالم اليوم.

قاربت الساعة التاسعة كان عليها أن تعود مسرعة إلى القسم الداخلي وعمارات الجامعة في زاوية الدهماني، كانت طرابلس بدأت تستعد لنوم مسائي بعد أن غفت قيلولتها بعد رجم مبدعيها، واستغرقت المدينة في سبات طويل.

أعادتني يد حانية إلى المشهد الجنائزي من حولي، امتدت يد رمضان تحتضن كفي وهو يعبر عن امتنان عظيم لعيادته كان صوته واهنا كأنه يخرج من بين الأحقاف، سألني عن ياسمين والحياة معها، رأى علامات الرضا على وجهي، طلب من الحاضرين عدم المغادرة، تناوب إخوته إكرامنا كانت وليمة، كبرى، تتبعها رمضان من خلال عينيه الوادعتين راضيا مبتسما، لم يكن حادث السير الذي أفقده الحركة وعطل جزءا كبيرا من أجهزته بقادر على إخفاء بسمته الدائمة، كنت أرى ملك الموت يزحف حاملا معه سياط الجلاد، يرفع كلاليب الموت في وجهي، أحاول أن أتقيه عنه؛ أو أرده، لم يكن ملك الموت يعبأ بي أو ينظر إلي كان سهمه، يطير في سماء الغرفة، ويحلق خياله على رأس صديقي المسجى، حفيظة تلك الشرود المثقفة، من علمتنا كيف نقرأ ونستمع، ونختار الدواوين والقصص، كنا نعشقها جميعا ونهواها،

لم ينج شاب من دفقات عطفها وهداياها الصغيرة التي تغمرنا بها، وضحكاتها وارتشاف المودة بيننا.

ساد صمت ووهنت الكلمات لم تعد يد واحدة ترتجف صار قلبان يرتجفان، إيه أيتها الروح الطيبة، تبدو عيناك الواهنتان المبحرة في العالم المرتقب، أراك تشحن مراكبك، وتعد ركائبك، وكأني بك تسير الخبب، تلاحقك نياب لا أستطيع توقيها، الضوء الشاحب يرسل كآبته من حولنا، لم نعد نرى أقمارا ولا نجوما من حولنا، لم يكن ما حولي إلا ظلالا لحياة قصيرة ولقاءات بيننا، لم يكن يستهويك الجدال ولا يهمك ما يقوله الفلاسفة، الحياة عندك كسب ودورة لا تختلف عن مساق الأولين دورة علينا أن نعيشها، ليس هناك مجال لفهم الأشياء من حولنا ولا إمكانات تأويلها، مما أكسبك الرضا وأعطاك الطمأنينة، لم تكن نقاشات الساحات والممرات بين طلبة الأقسام عن الفلسفة وأثرها في اللاهوت والفيلولوجيا تعنيك، ولا يستوقفك تيار الإصلاحيين الذين امتلأت بهم قاعات الدرس، وآليات فهمهم لكتب الشريعة والفكر، ودفاعهم المستميت عن التراث، والدعوة إلى السبح الطويل في نموذجهم الذي لايبلى ولا يدركه الهرم.

لم يكن يومها لتتوقف عجلة الجدال والنقاش، وتسمع من مؤيدي التغيير أسماء لا تعنيك إلا كونك مؤرخا ودارسا للتاريخ، وتضطرب عندما تسمع طالب الفلسفة يصدح عاليا لسنا بحاجة إلى التراث لفهم القرآن، ويجلدون بسياطهم دعاة التشبث بظاهر النص وحرفيته.

كنا جميعا نعيش غربة الفهم وسوء الفهم أيضا، ولعل الأولى أشد إيلاما ووقعا، لقد تركتها جميعا أيها المسجى في انتظار القادم المجهول.

إيه رمضان لم تكن إلا المحطة الأخيرة لرحلة حفيظة، لقد ترجلت في محطات كثيرة، ونزل مسافرون وركب آخرون، أريد أن أطلب العفو والصفح، لم يعد هناك متسع من الوقت.

علي أن أعود لحضن ياسمين ربما أجد بعضًا من سكينة وراحة بال، علها تستطيع فهم ما بداخلي من عذاب وما أجترعه من ألم، ونجدد الميثاق غير المكتوب بيننا، ذلك الميثاق الذي لم يكن حقيقيا، بل كان حبلا للتواصل والتفاهم، حيث لم يكن من تواصل بيننا إلا سوء الفهم، بث أملك القدرة على تحويل ما بيننا إلى مسائل اعتباطية لا تقبل الفهم، تسمعها وهي تقول وتردد إن عدم فهمك لي ينبئ أننا لا نعيش حياة مشتركة، أو نعيش موضوعا مشتركا، شعرت وأنا أسحب كفي من كف رمضان أن يدي غدت تلوح من بعيد لكليهما ياسمين ورمضان.

لم يكن صمتي قبالة الجسد الواهن إلا تكرارا للصمت أمامها وما أعيشه من غربة، مما يجعل الأمر أشد تعقيدا، بل ربما جعلت موضوعاتنا المشتركة أمرا منفصلا، حيث تحول ياسمين الجدل إلى ما أريد أنا وما أرغبه، رغم محاولاتي الفاشلة أن أكون دائما موافقا لما تقول حتى وإن كنت غير متفق معها، تتقدم في موضوعها ويتحول المعنى إلى مونولوج داخلي يمارس الرفض والجدال والسؤال والجواب والاعتراض والدحض. وأصبحت بالنسبة لها كائنا عقيما يصدر عني بعض الحركات، لتغرق ياسمين في تفسيرات صمتي وموجات غضبي، الذي يبدو ردات فعل غير متناسقة، لتبتعد ياسمين عني وتتيه في الوديان تتخفى بين أشجاره وأدور مع انحناءاته، أحاول أن أجد تفسيرا لما تقول، وتصير نصا مجلوبا من بلاد أخرى نصا قصيا يجبرني على ولوج اللغة وتفسير تركيباتها الغريبة وما أعده تأشيرات مقيتة، تثير فزعي واضطرابي و حنقي، ثم لا ألبث أن أشعر

أنني من أجبرت نفسي على ذلك، شعورها بفقدان المعنى المشترك بيننا. والنظر إلى الأشياء بهذه الكيفية، لم أعد قادرا على النظر للأشياء كما ينبغي، بل كنت أرغب في تأميم وجهات نظر من حولي، حتى ياسمين، بل أعد وجهة نظرها دليلا على سوء الفهم أو عدم الفهم أصلا، وكانت تصرخ دائما لما لا تحاول رفع اللبس في ما يعتري خطابينا، وأن تكيف نفسك مع مراد خطابي، إنك لاتريد الفهم ولكنك تمارس التأويل.

هل صرنا في حاجة إلى بناء جسور الثقة التي تصدعت بعد أن تباعدت المعرفة بيننا والجذور المؤسسة لها يجعل الفهم عصي لكلينا، ويتمتم كلانا داخله أن عجزنا عن فهم الموضوعات هو من يحيلنا على التأويل المقيت، ونصر على أن تأويلاتنا نتاج كون أقوالنا تحمل التأشير وتبطن التلميح، ونبدأ معا في تبرير أن كلامنا ليس بالضرورة يعني ما فهمه الآخر وما قصده ولم يفكر كلانا في تأويل صاحبه.

ـ ما يهمني هو ما المراد والمقصود لديك من خلال تأشيراتك وتلميحاتك، الذي بدا لي في أحيان كثيرة غير قابل للإدراك، تتابع وهي تنشج ببكاء مر، وتعيد لي قصة ذلك اليوم المشؤوم في محل بيع الملابس، وكيف أشرت إلى تبذيرها وإفراطها في ثوبها، أخذ الموضوع مسارب شتى وسبلا مختلفة، وأخذت الكلمات تولد فقرات عقيم، ليس لها إلا تأويلها، لتضفي على تفكيرها داخلها شيئا من الشرعية والمنطق.

كنت أصرخ أن كل مشاكلنا هو عدم قدرتها على استيعابي وفهمي، وأنه ينبغي لها أن تتجنب سوء الفهم، ومحاولاتها الدائمة تحيين القضايا وتأويلها آنيا، كانت تقول دائما إن كلامك هو نتاج باطني لما تفكر به، وكيف تفكر فيه.

ـ إذا كان كلامي فنا يستند على الباطن ألا ينبغي أن يكون فهمها يستند على باطنها، ولن يكون لكلامي قيمة إلا من خلال فهمها وتأويلاتها البعيدة، وربما المعاكسة لقولي.

أسمعها تردد غاضبة كم أتمنى أن يحوي قولك شيئا صغيرا من فني من فرديتي من خصوصيتي، لتحاول يا مهدي أن تنقل نفسك إلى نفسي.

لم يعد بوسعنا أن نحول الفهم بيننا وأن نعيد حركته الدائرية، وأن يؤثر كل منا في الآخر، أن أؤثر فيها وتؤثر في غير غافلين عن سياقات أحاديثنا التي قد تتسع والتي تعوق الفهم لدينا، وأن لا يكون فهمنا مقاصديا أكثر من كونه يحقق غاياتنا نفسها، ونكون قادرين على استخراج معان لم يتقصدها كلانا، لنشتري الفستان ونخرج هكذا رددت.

ـ إنك تشن هجوما لاذعا علي وتعتقد أنني لا أفهم ضيقك وضجرك من مرافقتي، لقد بت تكرهني، تضحك بمرارة.

ـ ها أنك تدعين أنك قادرة على فهم ما أقول أكثر مني

ـ إنني أفهم الكلمات وأفسرها تفسيرا جيدا أفضل منك**!!**

ـ لكن ربما أكون أكثر ذكاء منك.

صورة صبايا اللوحة في المقهى وهي تؤشر بسبابتها نحو الأفق البعيد تعيد ذاتها من خلال رأس الصومعة المذبب على هيأة قلم يكتب سطورا بلا معنى لياسمين، في لوحتي التي رسمتها، والتي بدت أنها تنطلق في أفق بعيد نحو غيم أسود يخفي خلفه رعودا تسبقها بروقا، لازلت أعدو في قبسات نوره الخاطف السريع.

11

عاودتني نوبات من الضيق والبرم، جعلت مني مصدر إزعاج وقلق للكائن الذي لازمني وقت شدتي وكدري، ياسمين تدرع فناء الدار غادية رائحة، أتصور وأنني أسمع هذيانها وهي تصف حالتي لصديقاتها، تلك الحالة التي جعلتني أنفر من ذاتي وممن حولي، وأقع في دائرة الريبة والشك، أتنصت وأرهف السمع، حتى إذا ما وجدت الوقت مناسبا كي أشعل معاركي، وألهب نار تنوري المتقد.

أين ولى ذاك الجلال الذي كان يحوطني، عندما كان دخولي حرمها دخولا مقدسا، كنت أخلع حذائي وأعفر جبهتي بتراب قبتها، الواسعة الرحبة، التي تجعلني دوما أربط بينها وبين قبة ولينا الرابض عند الهضبة، كيف استطاعت أن ترتفع دون عمد، تماما كما ردد الطيبون من أبناء عمومتي عن قبة جدهم التي لاتشبه غيرها من القباب، لم يكونوا معماريين ولا مهندسين، كانت الرغبة الملحة أن يكون لجدهم بناء مكور بنصف دائرة يقوم على جدران، تنادى الرجال المتعبون من يومهم الشقي، رفعوا الجدران وكوموا الجير الأبيض وخلطات (البغلي)، تواصل العمل أياما وليالي، عندما اطمأنوا إلى ما انتهوا إليه، عادوا والرضا يملأ قلوبهم.

عند آذان الفجر فوجئ الجميع بأن البناء قد إنهار، تحلق القوم رؤوسهم المطأطئة وعقولهم الموسوسة جعلت الصمت سيد الموقف.

قال الوقور شيخ المسجد:

ليس لكم ولي إلى المضي في مابدأناه وسيجعل الله بعد الضيق فرجا، أيها السادة النبلاء ليس هذا المقام إلا ذكرى لعالم جليل وغوث رباني علم وفهم، ولن تكن القبة وما تحتها إلا لذكر الله وتعليم كتابه.

في لقاء ياسمين الأول رسمت قبة واسعة للقائنا الشفاف والطري، كانت المعازف تتلى من حولي، وأنا أدرع قبة الولي ونفسي تمتلئ سخرية مما يردده الطيبون، اليوم أقف على بقايا قباب الوجد، أفتقر خلا يواسيني ويردني إلى عالم خلقته من وهمي الذي زرعته سنين ألملم ما تناثر من إرث العشق المهيب.

كيف لي أن أنسى موعدها الأول بين ردهات الجامعة، أشجار البرتقال من حولنا تنشر ريحها، صوتها الخافت جعل منها إيقاعا أتعيش به وله، اليوم وهي منشغلة عني تهاتف صويحباتها، لم أعد أعبأ بها، أصوات الدرابك وإيقاعها، وصوت زنجيتي اللعوب يطغى على المشهد ويعلو صوت ياسمينتي، صوت بركة الجهور يسمو على قامات الرجال المحلقين غير بعيد من مجالس النساء، عيونهم تتلصص من خلل الأجساد، تراقب مرابض الغزلان، ومنابت العنبر والكافور، ليس لأنثى أن تحظى بما حظيت به بنات الزنج، كما يلقبونهم (بالشوشانات).

ضحكتها الآسرة الماكرة وهي تطوف بالجنسين تستأثر بالعطايا والهدايا، يدها تجوس بين أثدائها المكتنزات تطمئن على جنيها ومكسبها، تنحني أمام الرجال تهمس في آذانهم وتطلق عباراتها المطمئنة لوساطة مرتقبة ورسائل تبلغ.

لم تكن بركة وسيطا بيني وبين ياسمين، لكنها اليوم تخرج هكذا دون حاجة إليها ولا أمر استدعاء يتوجب حضورها.

مجامري تتقد وذكرياتي تشتعل ضحكات الشوشانات تملأ حاضري، وياسمين منشغلة بإعداد أكواب القهوة وفناجين الشاي، من يستطيع أن يوقف زنجية ويثنيها عن هدفها إذا رغبت، وها هي تنتهك خصوصيتي وتطوي زمني المنهك، بدت جسدا رائقا، أتشمم عطرها النفاذ، الذي لازمني كثيرا في جولاتي في شوارع المدينة، وبين بسطات الأفريقيات، الزجاجات ذاتها واللفافات نفسها، كثيرا ماكنت أقتنيها دون حاجتي لها، كانت ياسمين تكرهها، وتمنعني من التطيب بها، كنت أغافلها، وأتشممها وحيدا في ركن الدار، وأضعها بين شقوق الجدار المتهالك.

نساء أفريقيا المخمليات، لم يستطع عقلي أن يفصل بين عطورهن وأجسادهن، متلازمتان أرهقتني كثيرا، يرسمن بعطرهن حدود ممالكهن الواسعة والحالمة، كما ترسم الكواسر حدود محمياتها، تستوعب الكواسر والبواشق والزرازير، في غابتهن المطيرة، لا مكان إلا للأقوياء، يقدمن الطعم ويتركن للديكة الصراع.

همست بركة لي يوما كيف افتضها الكبير بقسوة وغلظة، في يوم قائظ صمت الكون من حولها ونام السادة واستيقظت الرغبة في السيد، تستدرك بركة لم يكن يوما سيئا كما تظن كنت أعرف أنه قادم لا محالة، هكذا وشوشت لي أمي ذات صباح.

منذ ذلك اليوم صار سيدي عبدا في محراب أنوثتي، لم نكن عبيدا بالمعنى الذي تفهمه يا مهدي لقد كنا خدما عند السادة، يأتون بنا صغارا من السبخة القريبة، يفرح آباؤنا بالتخلص من نفقتنا، ويقبضون أجرتنا الضئيلة من تعبنا.

هكذا دورة حياتنا في البدء كنا ضحايا لهم، ثم نتحول إلى أسلوب الإرادة والفعل، نساؤهم الباردات برودة الشتاء ومزاجهن

المتقلب كما يوم ربيعي، يقابله دفء أجسادنا، وعبق عطورنا الذي يأسرك اليوم، قد وشوشتني وأنا صغير لم أبلغ الحلم بعد، متى تكبر يا عزيزي، أنا أعدك أن تكون نديمي وعشيقي، تقبلني وتضمني إلى صدرها، أستشعر البراءة تماما كما اللقاء الأول مع ياسمين.

عطرها يسيطر على حواسي تمرر كفها المخضب بالحناء وهي تهمس: أعرف تفاصيل هذا الجسد، فقد راقبته يوما بيوم، أفي الكون من يستطيع صناعة العشيق وتركيبه؟

كنت أعرف أن أياما عذابا سوف تأتي، تجذب رأسي الصغير لتريحه بين تذييها، كانت بركة من عهدت لها أمي بالعناية بي كما جرت العادة، لا أعرف كيف توسمت في المهدي دون إخوته دور العاشق حتى قبل البلوغ، كيف لي أن أخرج من غابات أفريقيا الواسعة والمهلكة.

ياسمين المنشغلة أناشدها بصوتي المخنوق أن تأخذ بيدي وتخرجني من ظلام الغابة، أسمع طنين حشراتها وفحيح أفاعيها، وبركة عارية تلهث من خلفي، تحمل سهمها اللذيذ ترشقني به، وفي سيري المضنى والمنهك، أستشعر لذة لقاءاتي ببركة المتعددة والمتكررة، كانت باكورة أعمالي ومفتتح غزواتي، صارت معيارا لكل نساء الأرض، بركة عالم لا يفارقني طفولة وصبا وشبابا، تقمصت بركة الأدوار كلها، بركة! النبع والجسد والروح.

اعتقدت متيقنا أن المرأة لا تشكل اليوم أزمة في تفاصيل حياتي، لكنها مثلت أفقا حضاريا وقدرة على التكيف، مرأتان تتصارعان داخلي لكليهما الفضل في إعادة توازني، وألبسنني ثوب السكينة، حتى في زمن القلق وهروبي إلى عالم بركة المنتهي، لازلت أنتظر أن تعود ياسمين تحمل ابتسامتها الهادئة، وتهزم القلق الذي

ينتابني، لقد شاخت بركة وتحررت من نير الفقر، وسكنت المساكن الشعبية، لكنها لم تحرمني خيط ودها، كان حضورها العاطفي قوي لازمني حتى بعد ارتباطي بياسمين، غير أن حضورها العقلي كان ضعيفا، كان وضعي مزريا وغريبا، أواره لا ينطفئ ولا يبلى.

ياسمين أحاول أن أهمس في أذنيها، ولا أملك القوة، أريد أن أقول:

لقد قررت عديد المرات بعد كل همس قاتل لاذع ساخن أن أودع بركة، فأتساءل هل اختزل العالم الأنثوي فيها وبها، مركزية ورثها تجعل الآخر بما فيهم أنت يايسمين تجعل من الآخر هامشا يلبي رغباتي، وأستند في ذلك إلى ثنائية الذكر والأنثى، حيث الأول يقدم على الثاني، هكذا أريدكن أن تكنَ.

قد يكون المشهد نتاج مخيلة وتصور، لكنني بالفعل لا أشعر بهذا عندما ألتقيها، وهي تمارس وحشيتها الرائعة واللذيذة تلك القسوة المحببة والعذبة بركة تمارس تعاليها الناعم حينا وتجاهلها الوقور أخرى، تتجاوزني في المناسبات تجاوزا سلبيا مبهما، تمارسه بكل حرفية ومهارة، بركة سيدة الكون مانحة السكينة.

ياسمين عندما أنحني أقبل جبينك وأضع كفي بكفك، وأستشعر دفء بنانك، حينها أحس أن بصمة إبهامي تأخذني إليها ترسم دوائرها كانت دائرة الأسود تحتل مسافات وتقتطع كل يوم أجزاء من جبينك يا ياسمين، أصابعي وهي تجوس جسدك تمر على أجساد مهر كثر، لم تكن لتتوقف إلا عند فرس العربة الصبور بركة، هل يستطيع ذهني المرهق اختزال عالمكن كله، وأن يكون اختصار الكون في عيونها، آه أكاد أنفطر ويتشقق العالم من حولي، لن أخفيك، إنني أحتاجها كي أعيد توازن عالمي من خلالها.

ليس سرا أنني أتردد عليها وتمنحني ما كنت أشعر أنه ينقصني، شيء يترنح بين طعم الطفولة وعشق الراشدين، هكذا عندما أتلقم ثدييها، هي الآن قد جاوزت الستين تكبرني بعشرات السنين، ومن خلال هذا البعد تمارس فوقيتها العذبة وغلوها الشديد.

ياسمين أنَ لي أن أروض ذهنك أن بركة غدت معنى تاه في دنياي، أحمل عصاي مسافرا، وقنديل من رجاء، بركة واحتي أشعر بهطلها وبرد وشوشاتها، غير أنك تملكين بصيرة تمنحك مكنة تجعلك قادرة على بنائي كل مرة ينتابني رهب أن بيتي بدأ يتصدع وتتخلله الشقوق، ألمحها من خلال البرصان والعقارب التي تتسلل إلى مخدعي وترعبني كلما التصقت بك ودنوت منك، مخلوقات لا تتوقف عن الهيجان والفوضى، وأنت لا تكلين ولا تتوقفين عن رتق خروقي التي تتسع.

آه أيتها المرأة الودود، حينا تكونين موئلا للجسد، وأخرى راحة للفكر، تمام كالذي أحسه وأنا في أحضان زنجيتي اللعوب، فاكهتي التي لا تبلى وآنيتي التي لا تنضب، عينا ماء جارية، ونونان ترويانى عطشي، أشتاقهما عند الظعن وعند السفر، هكذا باحت بركة التي لا تحس بغيرة منك ولا عليك، وقع كلماتها يرن في طبلة أذني، أنا التي أسقيك من ظمأ الزمن، شجرة طلح وسط متاهة وديانك المتيبسة، ليس لك إلا أن تستظل بظلي سيدي الأحمق الصغير.

ارتفعت قهقهاتنا وسط كومة الذكريات، كانت وحيدة منتشية بوحدتها، جسدها البرونزي اللماع، واستقامة جذعها، كما هو، وكما هي ذراعاها القويتان تبدوان خلف شفيف ثوبها، قلت لها هامسا:

هل حقا صرت أسيرا لديك، أنت المبتدأ، فيك ومعك اجتزت برزخ الطفولة والصبا، كنت الرعشة الأولى، جسرا عبرت عليه ومن

خلاله سالما معافى، أثق في رجولتي وبها أتباهى، لكنك السر الذي لم أبح به لمن حولي، كنت المشروع والعادة والانفعال أيضا، الوعي وعدمه، لكنني مضيت معك.

لم يزعجك خبر لقاءاتي مع ياسمين، بل باركته وشجعتني، أي قوة خارقة تملكينها أيتها السوداء الغالية، لم أعد أدرك، هل كانت إرادتك وإرادتي شريرتين، ولم أعد أعرف هل كنت خيرا مباركا، أم شرا مستطيرا.

اليوم تتثقل بركة كاهلي، وأحس أنها تمارس تحولا داخل تفكيري، وأشعر أنها تمارس دور الرقيب على ماضي أيامي، وأن الطفولة تفرض نفسها، حالة أفقد معها حالة الوعي والواقع، أفقد بسببها إرادتي، أحاول أن أستجديك ياسمين، أن تفككي هذا المعنى الرابض خلف شرفاتي المؤصدة، أن تنقضي غزلي المتراكم، وأن تحولي المعاني الثاوية إلى مشروع تأويل، وأن أتحول من خلال لغتك الباهتة، وكثرة تكرارها، وعمليات المقايضة التي نمارسها.

ياسمين ليتك تتجاوزين دلالة المعاجم في علاقتك بي (زوجة) لتصيري معنى متجددا أنشده وأرقبه كل يوم، أريد زادا للمعنى يسافر معي كتلك الحقائب التي تعدينها وتعيدين ترتيبها، وتهتمين بها في سفراتي وجولاتي الكثر.

لم تنه ياسمين مكالمتها الطويلة والمتكررة، أتخذ لنفسي مجلسا في الفناء، منزل الشياطين هكذا تسميه عجائز القرية، منزلة بين الشمس والظل، تمنيت لو خاطبتها فموضوعي صار محتاجا إلى شرح وإفهام، وليس إلى تأويلات تصنعها وفرضيات ومقتضيات، عجز المهدي نفسه فك رموزها، لم تجده نفعا كتب الفلسفة ولا آراء النفسيين.

كيف لي أن أهجر بركة، الحاوية لكل المعاني، فهي أمي التي فقدتها مبكرا، والعشيقة التي تريضت بين أفيائها، كانت كهفا إليه أأوي أجمع ما ألتقطه من ثمار يومي، روحي المتعبة والتائهة في دروب المدينة كروح طفل بوذي تحمل جدته ثوبه الأحمر بلون الدم، تطوف به الطرقات.

تحول كل هذا إلى كوابيس وأرق وسهد دائم، حبات العرق المتساقطة، ونوبات الحمى والفزع التي سكنتني، تحملتها ياسمين بكل صبر وأناة، لم تكن تظهر عندما كانت بركة تجالسني وأجالسها، حتى أنني شكوت إليها أمري، ردت وهي تبتسم، ما زلت جوادا تسبق الآخرين في عدوك، وطارحتها الغرام مكافأة لها.

من يملك هذا السجل الأسود كيف له أن يفهم هذه المرأة سر العلاقة بيني وبين بركة وأن حياة بيننا هي من تعبر عن نفسها، وأن تجعل منه موضوعا قابلا للنقاش، كيف لي أن أهدم المعاني التي تصنعها بركة داخلي، هل أستطيع أن أبحث عن الموضوعية وأطلبها كي تفهم ياسمين التي بدأت تحس وتدرك ما يجري، إنه يدخل في إطار المستحيل.

لكي أكون منصفا ليس سهلا أن تجد ياسمين مبررا لعلاقتي مع بركة، وكيف لها أن تفهم أن تاريخا يربطنا معا، وأن طريقنا كان متشعبا وكثير الالتواءات، وربما متعبا في بعض محطاته، كيف لياسمين أن تفهم دلالات التواشج بيننا، أو مجرد التفكير فيه.

أتدرك ياسمين حقا سر ترددي على بركة تلك الزنجية العجوز، وأن تتخلص من كل أوهامها، لأتمكن من زرع أوهامي، والتخلص من الأحكام المسبقة، وأن فهمها للموضوع لن يكون طريقا للمعرفة، بل هي طريقتي التي أفهم بها العالم من حولي، حيث أنا في

عالمي، كيف لأنثى أن تسلم أن علاقة بين ذكر وأنثى حتى ولو كانت تلك الأنثى سوداء قد جاوزت الستين.

وأن علاقتي مع زنجيتي تمثل أفق وجودي وانفتاحي على عالم بركة وحقيقة تلك العلاقة، أن تكون مسألة تجليات، وأن تدرك أن المهدي كائن له ذات.

12

كانت شمس الظهيرة ترسل سياطها تسخن الكون من حوله، القرص المحترق يتوسط كبد السماء، أكملت ياسمين ما اعتادت فعله في مثل أيام الصيف رشت الفناء بصيب من مائها الدافق، بللت جدران البيت الخارجية، تكونت على الأرض جزر ماء متناثرة، سرعان ماتبخرت قطرات الماء، ولَت ياسمين وغلقت الأبواب، تمنى أن تقولها (هيت لك) أدارت المكيف، وانطلقت تكمل مهامها.

تكور على نفسه في الركن أحس أنه لم يعد يفهم ذاته، لم يكل المديح لمنجز زوجته كما تعود، كابوس الاسترجاعات يحاصره من كل جانب، استرجاعات يحملها ما يقدر عليه من التأويلات التي تخرج من ذاته، يقف على القنطرة، بين شك الماضي وارتياب الحاضر.

هل تحول التفكير في الأنا الموغلة في التاريخ الشخصي، كما يردد صديقي أستاذ علم النفس، شيء يكاد يعصف بي، وجود ياسمين معي هو ما قادني إلى التفكير في ذاتي ومسألة وجودي التي حصرتني في عالم تفكيري المغلق، أم أن حدسا أعمى نأى بي عما ينتاب الحياة من تعابير، ما أقوم به من نبش للذاكرة والتفكير فيها يمثل لوما مبطنا ونقدا طبيعيا لملف أعمالي وأفعالي، أم أنه حقيقة أنا كما هو على الحقيقة، أمارس كل يوم عمليات تفكيك لذاتي بنشر وثائق حياتي كما هي، ذلك التفكيك المؤلم والمرعب لي ولمن حولي.

كم يرهقني ملف حياتي وحالة الوعي المزيف التي أعيشها، والحيل التي أمارسها كي أكون موضوعيا، فنطرة أمدها بين ذاتي المتصدعة وبين تعليل تفكيري، ياسمين إنني أعيش حالة صراع يكاد يعصف بي.

ياسمين عالم قريب بعيد يأخذني كطائر يحوم فوق المزن وحيدا، لم تعد الحياة حياتي، تستطيع ملك ذاتها، وتجعل إمكانية موضوعيتها، التي لم أعد قادرا على ربطها بتعابير الحياة من حولي، إنك آخر سطر في مدونتي يجعل منك موئلا لتفسيراتي السيئة من خلال وعيي الزائف، وجودي معك أعلم علم اليقين أنه ليس له معنى دون رزم الحياة التي عشتها معك، لاوجود لي إلا من خلال وثائق حياتي، التي بدأت تفزعني حد الاضطراب، وتشعرني بالدنب ورمزية الرجس وربما الخطيئة.

باتت بركة حلما مزعجا في تمثيلاته، حينا ترفرف حولي كطائر أسود يحوم في خلاء ذهني، يتخطف ما دفنته الأيام وأسْرَرْته في نفسي، حتى إذا أنشب مخالبه داخل جسدي، وحلق في فضاءات الرعب، وتملكني رعاب الأمكنة السامقة، تتلاحق ضربات قلبي وترتفع أنفاسي الواهنة، إلى وديان الإدراك السحيقة لتلتف حيات ملفاتي تتلوى حول خصري تعلن شبق زهرة يومي، وتتلبس شراذم ذكرياتي، لم أعد أطيق ذلك الحلم المتكرر والمفزع، ومعها تتكرر صرخاتي اليائسة، في البدء كانت يد ياسمين تنتشلني وتربت على كتفي وتضمني، بعد الصدع الكبير وتكرر ذلك صارت صرخاتي طقسا مكررا، كل مرة أحس أنني معلق في ثلاثية بين السماء والأرض والنار التي تلفح أحشائي، وتفتت خاطري، لأخرج بلغة ملتبسة، أدلف فيها بحججي الخادعة، وأبحث عن منطق للمعنى يقربني من الموضوعية، وفق رغبة أن أكون أنا المهدي.

ياسمين هي بداية الالتباس بيننا، أحاول عبثا أن أحتفظ بقواعد للنقاش، يكون لها دلالة ومعنى، لكي لا تختلط المعاني، التي تحاصرني بالمنطق، ولا أجد مبررا لما أفعل.

أحاول في استماتة أن أوقف سرداب ضياعي وأتخلى عن ذاتي؛ كي أتمكن من إنقاد نفسي، ومن جبر خيط الود بيننا، كم مرة ابتعدت مختارا عن فك رموز المعاني المحتجبة في أحداث حياتي الظاهرة، صمتي الذي أضحى ملازما، لم يكن إلا المهدي المعلق بين الكلام الذي يتفوه به، والمعنى الذي ينشده، وتفكيره المتأرجح بين عالمي والكون من حولي، تلاحقني في صومعتي، بقوانين تتبعني في منظومات تتصيد أخطائي.

كم من المرات أحست ياسمين بالحرج من حديثي أمام ضيوفها وبني رحمها، أشعر بغياب الخيط الذي أوفق به حياتي الخاصة والعالم من حولي، المقدس الذي يردف ظهري، يسائلني ويعلن عن نفسه، ويتصرف بوجودي، ويقرره باعتباره جهدا ورغبة، وبين ذاتي التي لا تعرف البداية ولا النهاية، في ركض موحش في غابات التذكر والاستذكار لأخلق زمن للمعنى، زمن أسلخه من رحم الآني، زمن يجعل بركة تظهر فجأة وبطريقة سمجة ووقحة، تعكر صفو حياتي، طبقات لأزمان جيولوجية تكمن في النفس، المعنى الكامن في مستودعي الذي امتلأ، ليفيض على عالم المعنى اليومي المتجدد ويعكره.

بركة التي أجبرتني أن تكون شيئا عميقا يربط الأمومة بالعشق والجسد، وتتحول إلى معنى ماثلا يزاحم ياسمين، حين اعتقدت جازما أنها لا تعدو كونها معنى أوليا وربما اجتماعيا، وبصمة لعابرين كثر، تبا لها كيف صيرت نفسها واقعا ماديا أعايشه في كل خطوي، لأفقد قدرتي مستسلما لسطوتها الروحية وربما وجودي، غدت اليوم قولا

أكثر مما قلناه في غابر أيامنا، الطامة أنها لا تتوقف عن إفساح المجال للقول، مشكلتي معك يا بركة أنك تتبدلين وتتغيرين مع زمني المتجدد.

بركة التي مزقتها نياب الحرب عندما انهار بيتها الهادئ البسيط، وقف الجميع يودعها صامتا ترحم الجميع وحوقلوا، أنت وحدك من حملت نعشها إلى داخلك، ونبشت قبر ذكرياتها، لا تدري أكانت خيرا، أم أنها ستكون شرا ووبالا، في حضرة الموت كنت وحيدا تنزف قطرات الاعتراف والشعور بالذنب والخطيئة، كان شطر الرجس يحمل على أكتاف الرجال المهللين والمكبرين، العلاقة التي تربطني بها صارت خيطا للرجس والذنب الذي ارتكبته طيلة حياتي، التابوت والجسد المسجى عرت ذاك الزمن المختبئ بين أضلعي، زمن بالٍ ومنتهٍ.

حالة من الوعي وتراكم معرفي هي التي تدير زمني المنقضي، رفده داعما الأحداث، التي تجبرني مكرها أن تسيطر على الماضي وزمني الآني، ليشكل الماضي والحاضر نسقا تزامنيا أدخل بركة هامش تاريخي الشخصي ورافدا لما أنا عليه اليوم.

لا تعلم ياسمين كم من الفوضى أعيشها بسبب اقتحام بركة لعالمي اليوم، وأدرك تماما أنها أي بركة غيرقادرة على تغيير واقعي اليوم، كيف لنسق سابق أن يملك القوة كي يضرب نسقي الحالي.

تبا لهن أدخلنني في مقارنات تركت أثرها اليوم، هذه الإضمامة بين ماضي وحاضري هو الذي فجر القلق والاضطراب، وضبب رؤيتي للأشياء، وفتح أبوابا للتفسير والتأويل، أحاول فيه خلق زمني التعاقبي المستحدث والمستجد.

لم تعد بركة جسدا وارف الظلال زمن العلاقة معها، بل تحولت إلى شيء آخر علامة تخرج من غير نسق علامة غير واعية،

لم تكن يوما تاريخية ولا فكرية، علامة غريزية لا تستند في صوغها إلى ذاتي المفكرة، بل خلقت آليات وأنساق داخل ذاتي تجعل بركة أُمَا حينا وأخرى عشيقة، وبين ياسمين الزوج، تفرض نفسها كعلاقة قائمة بالفعل، زوجا يقوم على التعارض، ويجعل منهما مشكلا لقرابة تدمج المندثر مع الآني، سيرا عقيما نحو المستقبل.

أي قرابة تصنعها اللغة بين العشيقة والزوجة، ياسمين غدت تحمل جزءً من بركة لتخلق معنى أجبرني على الانقسام والتجزؤ، لم تستطع منظومة من حولي احتواءها، كيف لي أن أعبر من الأولى إلى الثانية، حاولت جاهدا صنع شراكة مع من حولي فكلهم يعشقون ويتركون، فكل حالة مفردة، ليس لهم غايات المقارنة التي تثقل كاهلي وتؤرقني.

كيف استطاع هؤلاء الرجال خلق منظومتهم لتبادل النساء، هذه المنظومة التي تحولت إلى سر لا يداع.

لو أستطيع أن أطلق كلماتي عالية واضحة، ليحدث التبادل الصادح بين ما أفعل وما أخفي، بين أن تكون المرأة عشيقة وأن تكون زوجة، هكذا دون التباس، ليستطيع الرجال تبادل النساء كما يتبادلون الكلمات في جمل سياقية تناسب واقعي الذي أعيشه اليوم، أم إنني أصنع أشيائي من الحجر الأملس لخلق جسد للسالف من أيامي، بمذاق تاريخي، مثبت فقط في فكري التصنيفي الذي بدأ من حولي يحسون أن تمازجا في تكوينه يتناغم فيه العقلاني واللاعقلاني، وأسمعهم يتهامسون تفكيره الغريب غدا جزءً من منطق مغمور، لحكايا عشق وصخب عاطفي متمرد داخلي.

أصبح الماضي يشكل خطرا على واقعي اليوم، الذي أرغمني مكرها ولوج نفق التأويل، الذي أربك المعنى، وكشف عن ذاتي

المنشطرة التي تكابد من أجل استقرارها وصولا إلى حقيقتي الغائرة. قد يكون التشابه في الحالتين تجعل استعارة الأولى بديلا عن الثانية تندغمان، لتصيرا كلتاهما موضوعا للمقارنة، ومعرضا لتبادلات للقيم المتقاربة، أود لو يتحول الاستبدال إلى تضحية بالأولى في سبيل الثانية، ويجعل للشرعة العامة مجالا كي تمارس طغيانها علي، وأتحول خطابا خاصا يتعرى عن كل حس سليم ربما أشعر به.

أيمكن لي أن أنجح في تحويل بركة إلى قيمة عامة، عشيقة سوداء، تطارد غلامها، وتغسل أطرافه بالمسك والكافور، وبأعشاب تجلبها من معارفها، يأتون بها من بلاد بعيدة، بلاد يسكنها الجن، ويتقاتل فيها الرجال، لتأتي الجن تتخطفهم في زرافات تعبر الرمال والوديان، في كل خطو يخطوه تقدم عشرات القرابين لغربان الموت، وتحرص الصبايا على عروق وورق الشجر تحتفظ به قريبا من بيت العطاء ومن أرحامهن العطشى لغمر النهر، زجاجات وبرطمانات تفوح منها ريح غريبة يقول الرجال إنها نتنة، بينما تظل النساء سكرى، يشتممنها فرادى في حالة وجد، يحلقن بعيدا يحلمن بخصوبة ومنح أبدي، ريح مستحضراتها تسكره، وتدخله نفقا يقوده إلى كهف الضياع، يتحسس بقايا البقر الوحشي المكتنز.

بركة وياسمين قيمتان متعددتان منهما يصنع المعنى، معنى قديم، وآخر آني، باتا متعاصرين متلازمين، رسمتا خيطا متشابكا، أجبرني إحداث تغيير دائم لموقع بركة من ذاتي، مما جعل موقع ياسمين يضطرب في يومي يترنح بين العشيقتين اللتين تحملان كثيرا من القيم المتناقضة، بركة تحولت نارا تدفئ الماضي وتحرق يومي، لتتحول من ماء يروي ظمئي إلى سيل يغرقني.

كائنان يشتركان في حقول جسدي وفكري، ويسيطران على ذهني، يشكلان تراكما لم يستطع المواءمة بين قديمي وجديدي، ليتني

أنجح في عملية الاستبدال التي أمارسها في يومي، أم إن التجاور هو الذي فرض نفسه على واقعي.

واقعي كل جزء فيه صار نسقا متخلقا، سيطر على إدراكي للأشياء اليوم، في زمن تحول إلى استقرار زوجي وسيطرة ياسمين على نسق حياتي، واستطاع حينا من الدهر التغلب على سيري في نسقي المتغير؛ إلا إنه ما لبث أن أعاد في داخلي نسقا ظننته قد ذبل وفني، لأكتشف أن تعاقبا وإحلالا للجديد محل القديم، تشكل إدراكي الآني لعلاقة تبعية رهنتني لما مضى، لم تغن عنه شكليات واقعي اليوم أو أن تمنح ذاتي القدرة على خلق نسق مغلق لحياتي، يخضع لارتباطاتي الداخلية، مشهد مرتبك جعلني أصرخ وحيدا بعدما حاصرتني يد بركة ودراع ياسمين التي تطوقني، معا ظهرا متحدين يتشاركان واقعي، أشعر أن استعمالي لكلا المرأتين أسقطني في توافق شكل مشتركا آنيا تراكميا، لكينونة أنتجت أبعادا جديدة، أقلقت كياني وأربكت يومي.

هكذا بدت المسألة حرب بين المرأتين ميدانها داخلي، حرب لا تتوقف، بل ربما تأخذ سمتا نحو التعقد والتعدد، أثرت في حديثي مع ياسمين، صرت أتعمد صنع جمل طويلة معقدة، بديلا عن تلك القصيرة المبتورة التي كنت أنتجها، هل تحولت المرأتان إلى نص غامض مبهم، واحدة يعدها عقلي مرجعا يتناوب بين الواقع والتخيل وربما الأسطورة، وأخرى واقعا يخاطبني أحس به جسدا ونفسا، غير أن الكلمة المفتاح التي تجمعهما كونهما امرأتين تجمعها الأنوثة، تتنافسان بين ماثل أتغذى عليه، ومتخيل خرافي يعيش داخلي يجعلني دائم التفكير في أن أعيد آلية تفكيري من خلال سيري معهما أو من النسق المغلق الذي تحاول ياسمين تطويقي به.

13

في محاولة للخروج من دائرة اليأس اقترحت ياسمين أن نخرج معًا قاصدين طرابلس، لم تكن الطريق التي سلكتها ربما مئات المرات غاديا رائحا، لم تعد هي كما ألفتها، لا صوت يعلو فوق عزف الذكريات، لم يعد ذلك الخيط الأسود الطويل إلا عبورا لجدار الذاكرة الذي ظننت أنه قد مُحي، لمعالم قد زالت اليوم عادت المعالم ترسم نفسها، كنت أحدثها عن محلات تجارية لم يبق لها باقية، عن قصابين كثر في (العلوص)، لهم طرقهم الخاصة في عرض بضاعتهم، كيف كانت قوائم الجمال مركوزة لم ينزع جلدها، منظر لم آلفه في مدينتي، أصوات الجزارين بلهجتهم التونسية الجنوبية، جلبوا معهم طرق ذبحهم، وآليات عرض بضاعتهم، تزوج الكثير منهم، حيث وقعت كثير من نساء المنطقة في عشقهم، كيف شق الزمن وانفرج عن ثلة يحملون الأمل داخل نفوسهم، كيف تبدى وادي بسيس عذبا رائقا، انطلقنا ثلاثتنا ننشد العاصمة، كان جمال طويل القامة لا تغادره البسمة ولا يغادرها، شعاع الشمس الذي بدأ يتسلل رويدا رويدا في سيره الأبدي، من خلفنا يصنع ظلالا متسامقة متساوقة، تبدو الأشياء أكبر مما هي عليه، هكذا كانت رحلتنا نحو المستقبل، ظلال لشمس الصباح الرفيقة، الرقيقة، الخادعة، ما كان يدور بخلدنا أن وقت الظهيرة يظهر الأشياء على حقيقتها، وأن ارتفاع صوت الأذان عندما تكون ظلالنا مساوية لحقيقة وجودنا، قلت لياسمين أتدرين كم استمر صباحنا الخادع، لم تكن تدري

مايدور بعقلي لم أنتظر أن تجيب، للأسف نمنا وقت الظهيرة لنستفيق عصرا وجدنا ظلنا أطول بكثير من أجسادنا، غير أنه في العشية كان يسير خلفنا.

تمنيت عليها أن نهبط الوادي، وننعم برؤية البحر من أمامي وذكريات الماضي من خلفي، كان هبوطا رائعا بدت مزارع اللوز والزيتون من حولنا، كان الأزرق الممتد يبدو بساطا لا متناهيا ساكنا هادئا، مياه الوادي لم تجف بعد، مستنقع الماء الكبير تحف به أشجار السرول والنخيل، بدى عليها الإهمال والإعياء، لم يكن المشهد كما عهدي به، عندما ترجلت ذات يوم بصحبة الرفاق، جمال يقفز مثل غزال شارد يسبقنا نحو البحر، ينزع ملابسه ويقفز مبتهجا، يلوح بيديه من بعيد، محاولا الوصول إلى الجزيرة أو هكذا يسمونها، اليوم تقوم مجموعة من الخيام، ولافتات كثر، لبراعم وأشبال الفاتح، بينما على المداخل وبين النخيل علقت يافطات، اللجان في كل مكان، ومن تحزب خان، في البعد سمع هتاف الصبية، يبشرون بمستقبل البشرية ويقدمون العالم كما أراده الزعيم.

تبدى لي جمال وهو عائد من سبحه غير المخطط له، ارتمى على الرمال، يجفف جسده، وكعادته كان غير مبال، أشعل سيجارته ودندن بأغنية حزينة، كان صداها ينطلق من مسجل السيارة،

أي دمعة حزن لا لا

أي جرح في قلبي لا لا لا ...

عايشين سنين أحلام

لبنعرف لحظة ندم ولا خوف من الأيام

حدثتها عن رفاقي الطيبين، عن علي ومختار الذين أكلتهم الغربة بعيدا في بلاد العم سام، تزوجوا هناك من شقراوات حسان، وقضوا منهن وطرا، وكان لهم البنون والمال، ثم لم يلبثوا كثيرا حتى هجرتهم زوجاتهم وتخلى عنهم عقبهم، عادوا ليحملوا عذارى المدينة الحالمات بأضواء لاس فيغاس، وجزر الهونونولو.

أخبرتها عن محمد ابن الشيخ الوقور، كيف سافر طالبا إلى أمريكا، لم يستطع تحمل التغير الذي حدث في حياته، ترك الجامعة، وهام يتتبع خطى الكولمبية اللعوب، ترك أضواء أمريكا وضوضائها، حط به في الغابات الكولمبية، يدرع أرض المهربين وتجار الكوكايين، ليصل نعيه والده، بأنه مات مقتولا.

كنت أتجنب الحديث عن جمال حيث موته غصة رافقتني، تماما كما تلاشى رمضان وانتهى صورة ذابلة أمام عيني، جمال في ملكوت الله لا قبر يأويه ولا حفرة تواريه، غاب في رمال الصحراء، لا أحد يعرف كيف وأين، المهم أنه انتهى ولم يعد أمل في عودته، هناك ربما في واحة (أوزو) أو في رمال (فايا لارجو)، عامان مر بعد فقده وإعلام ذويه بأنه مفقود، كان والده مدرس اللغة العربية يتصبر وينتظر عودته، بعد الهزيمة المنكرة لقوات القذافي، وأسر قائد قواته، مرة يقولون إنه غادر مع المغادرين صوب أمريكا، لكن رسائل من وصل وعبر المحيط تصل تباعا، كنا نمر على أبوجمال في البدء كان صابرا محتسبا، لكن نار الوجد وألم وفراق المجهول بدأ يتسرب داخله.

ـ ليتهم يعلمونني حتى بموته، أتقبل فيه التعازي، وأقفل ملفه إلى الأبد، أمه مازالت تنتظر عودته، تبكي بكرها المحسن والطيب، هكذا استسلم الأستاذ الأمين لقدره، بدأ يشكو من تدهور حاله، كان يجرع الماء يطفى به غلة الشوق التي غطت فؤاده وفاضت من خلال مآقيه ودمعه المدرار، دموع الكهول نار تحرق الشباب وتجعل قلوبهم

تتقد حسرة ولوعة، كم من المرات رأه القوم يقف في طابور الجمعية ينتزع علبة الحليب وكيس الدقيق، كانت الفولكس واجن الصفراء هي من تعبر الطريق في تؤدة، هي من وقفت ذات يوم في (وادي بسيس)، تلامس مقدمتها ماء البحر، يدرع بها جمال الشاطئ الرملي في عبثه الذي لا ينتهي.

أحدثها عن رفيقي الذي حمل الموت بين راحتيه دون موعد، كيف واجه الردى بعيدا، تاه في الصحراء بعد أن تركه القادة والضباط، كيف سار في سراب المفازة العظيم، وقطرات الماء الشحيحة، هل يبست شفتاه ظمأ وتشققت قدماه على رمال (أوزو) لا أحد يعرف، أم أن من أسره دق في جمجمته مسمارا وبقى جمال يتلوى يوما كاملا يصرخ من الألم بينما يحتسي آسره المريسة والكونياك الفرنسي.

ضاع جمال كما العشرات التهمتهم السوافي وغطاهم الموت القاسي، تحت سياط الشمس ومتاهة الصحراء، يسكنهم خوف ممن يطاردونهم، يسمعون وقع عجلات سياراتهم التي تذرع الأرض من حولهم، لا دليل يرشدهم النجوم وحدها من يمد شعاعها الخافت البعيد، لا شك أن جمال وهو وحيد في بحر الرمال العظيم، تذكر جنيات الصحراء وعفاريتها القساة، في النهار يمارسون التضليل عبر غدران من الماء تتراءى له غير بعيد، كان الإعياء يأخذ منه مأخذا، في المساء تتلقفه الجنيات يسمع أصوات المزمار الذي كان يعشقه، لاشك أنه رقص على إيقاع مراسم موته، جمال كما عادته لابد أنه فارق جماعته الهاربين سالكا طرقا تهديه ومعابر أخذته بعيدا إلى سراديب الردى الموحشة والقاسية، غاصت قدماه في الرمال عديد المرات في البدء كانت ساقاه خفيفتان تنسل برفق من براثن الرمل التي تشده بعنف نحو أفقها الممتد، سمع صوتها، وهي تدعوه، أيها الغريب ستتكفل الشمس

الحارقة، بتجفيف جسدك، هنا لن تعبث ديدان التراب بجسدك، ستكون كما أنت جسدا ملقى، غير أن حبات الرمل في تقلبها وسيرها الأبدي، تجعل من جسدك كتيبا ومعلما، يرشد السالكين ولو إلى حين، جمال لا يعبأ بصوت الريح من حوله، ولا في علو صفيرها ونغمها البائس الحزين، تراءى له الشاطئ الطويل، الممتد شرب ماء أجاجا، تذوق طعمه كما لم يحسه يوما، سبح على الرمال وحيدا، سمعته وهو يناديني ويلوح بيديه في تصنع لمشهد الغرق قبالة النخل والشجر، الرمال تغطي جسده، يمد يده، جسده ثقيل يحمل وزر قاتليه، وخطيئة الذين قذفوا به إلى مسرح الموت ولعبة الهلاك، لم تعد يداي بقادرة على حمل جسده، كفي تلامس كفه، أريد أن أنتشله من درب الفقد، غاصت يده بعيدا، ألمح معصمه ويده التي تلوح لي، في حركات هي أقرب إلى رقصة الموت، بقت كفه مبسوطة، وسبابته تشير إلى السماء، تشكو ظلم الأرض، وتطلب العدالة، أصابعه الذابلة، قرأت عبر خطوط يده تعاستي السرمدية، عندما مددت يدي للغجرية اللعوب، لم تكن تعلم أن كفي وكف جمال قد اختلطت خطوطها، ورسمت شباكها في تقاطعات لن تستطيع فك رموزها، وأن جسدي يفقد مساحات في تراكم بطئ عبر درات الغبار التي تحاول ردمي، كان جمال محظوظا تكفلت عاصفة رملية، بإنهاء تراجديته في مشهد وصل الذروة وبلغ منتهاه، اليوم تخنقني حبات الرمل وذرات الغبار، أنفضها عن جسدي كل يوم.

أغمر جسدي بالماء وأقذف به في لجة البحر، في كل مرة تتراءى لي يد جمال لاعبة لاهية، وعشرات العابرين، يمرون في مسارب الصحراء يدندنون بألحانهم الممزوجة بين أصوات القنابر وعواء الذئاب، وطنين الذباب، يركلون العظام، ويسخرون.

ربما جمجمة جمال المتكلسة قد غدت فرجة للعابرين، هل حامت الغربان حول جسده المسجى، تقضم اللحم المتيبس، تقيم عرسها

الجنائزي، وتقاتلت ذكورها على فتات جسده، أم أن أحدها افتك طرفا من جسده، وحط به بعيدا، يطعم صغاره، جمال موته صار عطية وهدية، أنقد ربما عشرات الغربان، أولمت، ونعقت في أيام لفحت فيها الريح أجنحتها السوداء تحلق في حركات انزلاقية، تراوغ الريح وحبات الرمال، الجوع يسرف في شد كلاليبه على الأمعاء الفارغة، تتشمم أسرابها الريح وتلعق الفضاء، كادت أن تهوي مستسلمة، غير أن كبيرها لم يفت جناحه المسير، كان نعيقه مرعبا ومدويا، سمعت روح جمال ذلك النعيق، كانت آخر الشهود على الوليمة.

بللني قطر الكدر، كنت أهدي وأنا أشهد تلك المناقير الحادة وهي تخترق البؤبؤ، ينفجر سيل أزرق منتن، الذباب الأخضر يلاحق اللحم المتفسخ، لم أعد أحتمل كان صراخي صامتا يتأرجح بين الحشرجة والأنين، جثمت على جسدي لأيام وأيام، حتى عافني النوم وعفته.

لا احد يجيبني، ظلت الأسئلة معلقة، وأنا أهبط الوادي ،ياسمين تنظر من عل لم نستطع الهبوط كان الشاطئ مشغولا بالبراعم كما يسمون، وترن في أطراف الوادي صيحاتهم وتعلو أصواتهم، وتخرق سكون المكان.

في صفحات تابوت الغزال بحثت عن جمال بين السطور، وفي أفق الكلمات، لم يكن لحم النوق يستهويه، ولا جلب الماء صنعته، لقد كان كل هؤلاء في كل حرف، جمال أنت وحدك من حرك النص أمام ناظري، مخبأ داخل النص التي تشبه حالة من التكتم الكبير والقاسي وسيمفونية الصمت التي أجبرت الجميع على الصمم والوقر.

كانت طرابلس غارقة في كدرها ووجعها، وياسمين تعشق المدينة القديمة وتهواها، مررنا سريعا راجلين بالساحة الخضراء كما

كانوا يسمونها، صور الزعيم تنتشر، وترتفع الرايات الخضر، بينما تدرع الشرطة العسكرية المكان، بجانب المنصة الدائمة للاحتفالات، عبرنا صامتين مجانبين الالتصاق بهم، تحت القوس المؤدي لميدان الساعة، كانت السرايا بجدرانها العالية تقف في زهو وعلو، بينما امتلأ الشارع بالعلب الفارغة، وأكوام القمامة، هي ذي طرابلس، مر بخاطري وأنا أعبر المكان ذكر رمضان وحفيظة، وجلد الشاعر، كانت السياط التي خضبت ظهره هي من تجلدني اليوم، لم يكن يوما سيئا، سوق المشير خاو على عروشه بعض من الكهول يعزفون على مسداهم وينسجون أردية، بمسميات تتوافق مع المرحلة، بينما يستمر عزف المطارق للآنية والقدور، ولأهلة ستتربع على القباب والصوامع، تفترش عشرات النساء الأرض يبعن ذهب الجمعية، وعلب السردين، والساعات الإلكترونية المهربة، ويخلط الشباب براميل العصائر بطعم الفراولة والبرتقال واليأس.

في العشية وقد عاودت ظلالنا طولها الخرافي وقفنا متحاذيين أنا وياسمين على الرصيف كانت القلعة خلفنا والمدينة الكئيبة أمامنا، كان شطر من ظلالنا تستلقي على أرضية الشارع، بينما انكسر الباقي على جدار القلعة الرهيب، كنا قزمين أخرقين بينما صارت الظلال عمالقة يصاحبننا حتى المغيب.

شارع الرشيد امتلأت أرصفته بباعة متنوعين، بضائعهم على متون سياراتهم، أحذية متنوعة ومختلفة، أدوات ومعدات ورش، شاي الزهرة وصورة السيرلانكية تحمل قفتها على ظهرها، حزم من الشيح والزعتر، قناني زيت (غريان) و(مسلاتة)، والتين المجفف المعلق، خلط غريب عجيب، بينما تذرع نساء بعضهن بعباءات مغربية، وأخريات سافرات بصبغ يعلو وجوههن، يُعلِنَ في سفور عن بضاعتهن، تحت مرأى ومسمع رجال الأمن الداخلي، الذين ييسرون

لهن الأمور في الفنادق الرخيصة التي يكتظ بها شارع الرشيد وروافده.

كنت أحث ياسمين على الخروج من دائرة الموت والشبق دائرة الحياة عبر معابر الموت، ترتسم في شوارع طرابلس مفارقات الوطن، تجتمع المتباينات وتختلف السحن، واللهجات، طرابلس أيتها الدرة الغالية، هل غدوت كصورتي أنا وياسمين قرب السرايا ظلا بلا روح، يولد ساعة الفجر، ليتشاغل عن الظهيرة، ليرسم صورة باهتة في عشية من يومك الطويل صورة الوهم الذي رسمه العابرون عندما أناخوا إبلهم ونصبوا خيامهم على شرفات السرايا، وتوسدوا دراع الِـلّات وتوضؤوا بماء (بومليانة)، قبل أن يلوثوه، ويطمروه ويفرغوا مثاناتهم في أحشاء طرابلس الطهور.

رحل أستاذ اللغة العربية قبل أن يعرف أين توارى جمال، ولم نعرف نحن، كانت سيارة الشرطة العسكرية تحمل صناديق الزيت والطماطم والدقيق والرز، وثلاثة كباش حطت أمام بيت الأستاذ لتعلن خبر موته، لم أستطع قتل جمال داخلي فلم أذهب للعزاء لم أتقبل من أحد أن يحدثني عن جمال، طرابلس يجتمع شمل ألمي فيك ويلتئم حزني تحت أقواس السوق البلدي، حيث فراخ لحمام زاجل زغب الحواصل يلقمها الصبية حبوب القمح ويجرعونها الماء من أفواههم، بينما استسلمت الديوك العربية بألوانها المتعددة والمتداخلة، تقف بشموخ مصطنع على حواف الصناديق البلاستيكية رديئة الصناعة، بينما يتفحص الزبائن البضاعة يقدرون أوزانها وعمرها وسلامتها من العيوب والأمراض، أعرافها المنتصبة هي من يميزها عن دجاجاتها التي تقف مستسلمة لأكف المشترين، حتى الصقور الأبية المتعالية، جعلتها الكمامات تتخبط في ردات فعل بائسة بمناقيرها المربوطة، عالم

يتحرك فيه الدجاج كما يشاء ويبغي بينما تظل الصقور معصوبة العينين مربوطة إلى صناديقها.

قررت ياسمين أن نبيت عند قريبتها بعد أن انقطعت أخبارها فترة من الزمن، لم يكن المكان بعيدا، في شارع جمال عبد الناصر، أو باتشيني كما يلقبه أهل المنطقة، تلك الكلمة التي تشعرك أن شيئا ما يتدحرج أمام ناظريك، من خلال التفاتة مبهمة لنساء كثر، رسائل مصمتة، صامتة وإشارات غامضة، شارع له سمعة كبيرة في ثلاثينات القرن الماضي، حطت به أجساد مارست اللذة المحرمة، عرفت أسماؤهن من خلال نسبتهن للمناطق التي قذف بها الجوع والفاقة والحاجة، وسكبت فيه كؤوس المتعة، العمارة الإيطالية المتهالكة نتيجة الإهمال، تقوم فيه العمارة على الشرفات المعلقة والنوافذ العالية، كان إيقاع طرابلس الحزين متمثلا في المحال المغلقة والبيوت المتصدعة.

مراسم الفرحة ارتسمت على محيا ياسمين بعد لقائها صديقتها أصوات القهقهات والفرحة بادية، خيم سكون الليل كنت وحيدا بالمضافة، أراقب الكنيسة القديمة، وسورها المحطم والضوء الشاحب في الشارع، توغل الليل داخلي عاودني شعور بصراع داخلي أعاد التسلل عبر ذهني المرهق صراع بين مرأتين تناوبتا الوظيفة ذاتها، عشيقة رائعة وأم رؤوم حانية، بركة التي امتصت سمومي ونكدي وحقدي، بشفتيها الغليظتين، تماما كما لدغ متورم، كانت تغرز مشرطها وسط ألمي، لتقذف به بعيدا وتربط أطرافي كي لا يصل السم قلبي، هي من علمتني أن الحقد لا مكان له عند الطيبين، أحدثها عن غزواتي مع ياسمين، أشعر أنها تفرح بذلك وتطرب، لم تكن لها بي حاجة إلا وقت أن تشبع ياسمين حاجتها، بركة التي تمتص قيحي ووجعي، لتقذف به بعيدا دون تقزز ولا تعفف، أحنو عليها مقبلا، وتتأوه برفق كما بقر وحشي وقت ميلاد صغيرها، تتحسسني بأنفها

وتدك رأسها حينا وتمسد شعري أخرى، لتأسرني ريح الغابة وفاكهة المدار.

بركة زنجيتي اللعوب خطيئتي الأولى، هنا بعيدا تقتحمين خلوتي ترسمين معالم للشهوة والمتعة داخل ذهني، تلك الشهوة الملعونة الممتعة القاسية، صرت أمقتك وأكرهك، تبا لك أفقدتني التوازن في علاقتي مع ياسمين التي أسمع حديثها وفرحها بلقاء صاحبتها، ياسمين التي غدت تقليدا باهتا لبنية تشكلت خارج زمني وفكري الذي حولني معك إلى شاعر، يغرف جمله من متنك الذي يأبى التلاشي، ولا يقبل الفناء.

بركة التي تمارس عنفا مستداما اصطادتني كائنا، الكلمة المفتاح التي يدور حولها ديوان حياتي. فبوعيي الحالي لم أكن قادرا على سبر ذاتي، بل هروبا دائما متقصدا يحشد في جنده الفهم والإرادة، وربما الخيال الذي ولد لدي يقينا زائفا، ومعرفتي الحقة بأحوالي ـ أو هكذا أزعم ـ لأكتشف متأخرا أن ذاتي لم تكن ملائمة لذاتي، وأن وعيي لم يعد قادرا وليس بإمكانه تجميع نفسه، بدأ استبطان الماضي لدي بما لا أفكر فيه اليوم حقا، لم أعد قادرا على ممارسة فعل النسيان على نفسي، فرارا مما أنا عليه اليوم، وكي لا أصل إلى ما وصلت إليه مرحلة إدراك ما أنا عليه، لم يعد لي خيار إلا الحفر المرهق وإزاحة ما أمكن من طبقات جيولوجيتي التي راكمها الزمن، وأن أكون أركولوجيا بامتياز. عندما رأتني ياسمين أحمل مطرقتي الصغيرة، أقلب بها تربة ذاتي، سخرت مني كيف لك أن تقتلع جبل من جيلوجياتك المعقدة، لم تكن تعلم أنني ما زلت قادرا على اختيار عيناتي، وحتى العشوائية منها، كان عقلي الباطن وحدسي هو من يقتادني إلى غور طبقاتي، لن أتدحرج من جبل واقعك يا ياسمين، ولن

أتوه بين طيات نفسي، فلكل زمن خصيصة وطابع، وربما فائدة، هكذا بدت كلماتي أحاجي لها، ومفاتيح لي.

لم تعد الذكريات والتذكر تحكمني كما كانت في بداية أزمتي، بل صرت أقترب من تشخيصها، لحالة وعي بدأت أستشعر نسماتها أكسبتني بعد رحلتي وسيل الذكريات توازنا مع خيط الماضي وعلاقتها بما أنا عليه اليوم، بركة التي غدت مركز انشغالاتي في خضم جيولوجيتي المعقدة، بدأت ملامحها تظهر جلية، ولم يفزعني شكوك ياسمين حولها وربما معرفتها به، لم يعد للمعاني التي تفتكها ياسمين منها ذات قيمة لدي، يريحني أنني لا أملك القدرة على تغييرها، وحدي أسير مجهدا أرغب في افتكاك حاضري من ماضي، وأكتب صك انعتاقي من سيد لا يرحم، يعبث بي ويستدرجني منفردا حينا، وأشعرني بالوحدة حتى معك يا ياسمين، أعيدك وأنت تنامين سعيدة بقرب رفيقتك، أن أكون غير الذي كنته، وأن لا يكون مخزون أيامي فانتازيا واقعية، أخذت محلي في التفكير.

لا يدرك من حولي أن بركة اللعينة، تتبدل وتتحول، فكم من المرات حلت في جسد ياسمين وتلبستها، صارت بركة هي ياسمين، كم من المرات انتابني إحساس غريب، كون ياسمين ليست أصلا بل نسخة مستجلبة تحكم عيشي أحس به وأتلمسه، ليس لي بد من إكمال مهمتي الاجتماعية المقيت ينبغي علي مراعاتها، أدرك تماما أن ما يعتريني من انحراف تفكيري ليس واقعيا، وأنني محتاج إلى إعادة الكرة في طلب الاستشفاء والعلاج علني أخرج مما أنا فيه.

طرقت ياسمين الباب بهدوء، كانت تحمل كأس الماء في يد، بينما أقراص المهدئ في الأخرى، كنت محتاجا إلى بلسمها، لأطفئ بركاني الملتهب، واتقاءً لنوبات جنوني، وحتى لا تحرج أمام مضيفتها، لو تأخرت قليلا كنت سأصرخ عاليا في الشرفة المعلقة، أنادي بركة

ورمضان وجمال، وأن أستدعي روح شاعري المغدور، وربما سبحت محلقا معهم جميعا طائرا في أفق شارع جمال عبد الناصر، وأن أعبر شارع الهرم، وأدس رأسي على إيقاع شرقي يملأ الشاشات من حولي، لنساء لا يشبهن بركة ولا يقتربن من طهارة ياسمين.

جسدي المرهق والمتعب وحالتي التي عرفتها ياسمين جعلها تضاعف الجرعة، وتباغتني بتذويبها في الكأس المحلى، كان خذرا رائقا انتابني، وسكينة سكنتني ولو لحين.

أوصدت الباب وغادرت، قعدت وحيدا ألملم ذاتي، في حساب لها، حوار ينتابني بين اللوم والندم، بركة غير المفكر فيها الآن، هي من أخرجت طفولتي وصباي، أيعقل أن أكون فريسة لها!

مهدي الصغير هو الذي يجذبني نحو هاويته، وأشعر أنني أترنح من قمة جبلي الذي نويت هدمه بقادومي، وجعلني أغوص في طبقاته وأزمنته، بعيدا عن الواقع، أصاب بالدوار وأنا أحفر حفري المستمر والمنهك، في الأعلى وعبر منابت النور ألمح وجه ياسمين وهي تبتسم، بينما حبال بركة تعتصرني وتأخذني نحو كهفها القديم، صرت لقمة سائغة لطفولتي التي تشدني للخلف، ما كان لك لبركة أن تغتصبني وتمنحني لذة ما زلت أستشعرها شكلت أسا أوليا لما آلت إليه الأمور اليوم.

على وقع أصوات خافتة لأقدام تأخذ طريقها في ليل طرابلس، وأخرى صادحة في أزقة سيدي بلخير، وأثر الكحول سيء الصنع تملكني خوف شديد، وربما رعب اقتادني مختارا العودة لمرابع الطفولة أستأنس بها، جارنا الذي يجرع زجاجات الخمر، وصوته الجهور يدرع القرية في لياليها المظلمة، هو ذات الصوت يعلو في شوارع طرابلس الحزينة، ما أعيشه اليوم ليس إلا حلما يخفي طفولتي

ويحتويها، هو من يؤسس اليوم لتخلق تعاقبي لمتكون قديم لثقافتي اليوم التي تظهر وتبدي المكرر وتكشفه لموضوعات هي نفسها، في دوران حلزوني، وأنا أجلس وحيدا أمسك عصاي أحاول كل مرة كسر فخار جراري المستنسخة، وأهش بها على ما تبقى من متاعي، أعفي أزمنتي الغابرة، وأن تتبخر جزيئاته المنحطة والمظلمة، إنه عالمي الليلي الحالك السواد، سأخرج من ظلمتي، وسط الظهيرة، دون أن يعشى بصري ولا تكل عيناي، ياسمين الواقع والآني تحولي إلى يقين يجعل منك واقعي، ليس مهما أن إدراك من داخلي يقول إنها ليست الحقيقة.

زمن كهولتي التي أعيشها اليوم أجبرني أن أحول مافي حياتي إلى سيل من التأويلات، بعد أن كانت سفرا من التفسير، جعلتني معلقا بين طفولتي وواقعي، في مكان غير محدد في خارطة الزمن، حتى غدا هذا التفكير حدث يومي أعيشه، وعذاب أشتهيه.

14

لم تستطع أقراص ياسمين وقف نزيف ذاتي، تراءى لي جمع من السود يدرعون أزقة القرية، يسكنون البيوت القديمة والخرائب، لم يكونوا عبيدا ولم يكونوا أحرارا، الكل يمتهنهم وقت الحاجة، تقبل نساؤهم طائعات، يستبشرن بالأفراح، ويندبن مع النادبات، أصواتهن أكثر عذوبة وقت الفرح، كان نواحهن مرعبا قاسيا موحشا، وهن ينغمن الحزن، ويتفنن في صوغه، دموع الصبايا تنحدر، وتنفطر قلوب الفاقدات، إلهي كم منحتهن من قوة وقدرة، حضورهن كان طاغيا في المآتم وكذا في الأعراس، عندما يجف ضرع الحوادث والمناسبات، يجلسن أمام الخرائب سيقانهن المكتنزة وصدورهن العارية، يمر بهن الرجال مسلمين، بركة المخملية التي تشبه نساء أمريكا اللاتينية الخلاسيات، لا أشك مطلقا أنها هجين، تقاطيعها لاتشبه الكثيرات، صوت دندناتها لا ينقطع، فهي تجيد المرسكاوي، والطويل، تؤلف أغانيها في كل مناسبة، وتصنع مراثيها الطويلة في ذكر فضائل الغابرين، يرتفع صوتها حينا ويخفت أخرى، لا تنفك تعبث مع نساء القرية، وفي خلو الطريق، تنادي النساء بعبارات كنت أستحي من سماعها، كن يتضاحكن ويتمايلن طربا، ماكنت أحسب هذه الكلمات المحرمة في محيطنا هي من تصنع الفرحة والبسمة على الوجوه، حتى بتن يحسدن من لا تحظى بشرف عبث بركة.

لم يكن سكان القرية بتلك الفضيلة، كما أن بعضهم لم يتحل بالسماحة، تجاه سيل السود الذين قذفت بهم الحاجة والرغبة في العمل داخل البيوت، الشباب بعضهم رأى فيهن مردما رخيصا للشهوات المكبوتة، لم تكن إرادتهن ورغبتهن محل تساؤل أو ارتياب، بركة الوحيدة التي يتجنبها الرجال ويخشونها، بل هي من همست لي ذات قائظة، أنها من تختار ولا أحد يجبرها، كبرت بركة المميزة عن صويحباتها، حتى غدت لذة الماضي معها ألما استبد بيومي، ألم يخرق السنن والعالم من حولي، ويسحق جسدي المرهف، ثنائية صغتها في ثنائية الحب مع ياسمين، والغرق في مجاهل الحياة ومتاعبها.

ياسمين هي التي جعلتني باحثا عن السعادة الفردية لأخلق مجتمعي الصغير الذي لم أفلح يوما في بنائه، الحياة تقسو من حولي ولم أعد أحتملها، ولم يعد بي حاجة إلى الفهم، مايحركني هو الشعور الكامن، وآخر أعيشه، أحس أنه لا يحمل مضمونا حقيقيا، والذي كمن متخفيا لسنوات في ذاكرتي المكبوتة في مسيرة الاعوجاج والانتهاك.

تلك البئر المخبأة داخلي، كنت أزعم أنني أعرفها، وأنني لست مرهونا لذاتي، أتوغل داخلها عميقا لأكتشف أنني مهووس عصابي، وأتجنب الاعتراف بذلك، كل هذا جعلني أخاف عمق نفسي وأخشاه، في بعض الأحيان أتحول ثرثارا أردد الكلام وأعيده، في ظل القلق المزمن، قلق يجرني مكرها العودة للخلف بلا توقف ولا هوادة، تلك العودة المتكررة والمتعددة، تعيدني إلى مسارح ومواقف ظننت أنني اجتزتها ونسيتها، وأن مراسم دفنها قد تمت، أصر الوقوف على اللحود والشواهد أقرأ حروفها، وأستخرج معان تجعل حياتي صعبة قاسية صعوبة الاستمرار في حب ياسمين وإمكانية نجاح مواصلة العيش معها.

تبدت المتناقضات من حولي وداخلي أرسم متاهات ومسارب تتشابك، لم يعد ما بيننا مناكفات بسيطة يمكن أن أدس رأسها في تراب براحي المتسع والخاوي، مناكفات لا تملك موضوعا ولا غاية يمكننا السعي لها، بل إنها يمكن أن تتخلل يومياتي الراكدة، التي بت أشعر أنها ستأخذني إلى الانكفاء من وجهة نظري، وربما الانحراف حسب ما تعتقد ياسمين، رغباتي باتت تائهة، روح مشردة بين بركة وياسمين.

في حلمي المتكرر كانت بركة بقوامها الأسطوري تحاصرني في الركن قرب مخدعي، أحس أنفاسها تتوالى كفرس جامح، وأنا فارسها أمسك اللجام أحاذر السقوط، كانت في عدوها تلامس جدران داخلي، فتحات أنفها بدت كشدقين ملتهبين، تنقبض وتنبسط مع كل نفس تصدره، رأسها الجميل ينطلق كسهم يتصوب نحو عالمي المفرغ وسط مضمار لم يعد فيه إلا نفسان يلهثان، فرس تريد أن تقذف بي بعيدا، وفارس ينتظر أن يقفز من صهوتها سالما، لثم شفتيها الغليظتين بتلذذ ورغبة، بشعرها المجعد والمتكتل، تأتيه حلما ناعمة القوام، بشعر منسدل على كتفيها تقارب في شكلها ياسمين، تمازج أرهقني وقارب بين المتخيل في عالمي المتخفي، وبين واقعي الذي أعيش، كم من المرات حاولت أن أبين لياسمين أنك تأتين في غفواتي حلما ممتزجا مختلطا، لست وحدك يا ياسمين!

أأكون من الوضاعة والخسة أن أعترف أمامها بذلك! أجلس معها وجها لوجه كنصراني يعترف أمام قسيس، لن يكون الاعتراف إلا في خلوتي أطلب من القوة الغيبية الخفية أن تخرجني من جحيم يومي الذي طال، أو أن أستمر في الهروب بالغياب المتكرر عن البيت ووحدتي المزمنة، حينا غيابا جسديا بدأت تحس به وتشعر، وغياب نفسي جعل يومي كدرا متواصلا.

منيت نفسي كثيرا أن أفتح حوارا تكون هي جزء من حوار بين ذاتي، ما يرعبني درجة الفزع هو مدى قدرة ياسمين على الصبر والاستماع، هي أنثى لابد أنها تغار حتى من الماضي المنقضي، وأنها لا تعدها أحلاما وكوابيس لا غير.

أواه! إنني أتعذب وأتألم، ولي رغبة جامحة أن أقذف الماضي وألمه ككرة قماش بال، أن أودعه حفرة خيالي ومدافن ذاكرتي الملأى بآلاف الرموس والشواهد، كيف لبركة أن تقيم ضريحا وتبني قبة وتطلق بخورها، لتكون محجة الذكرى، وآلام الحاضر، علامة دالة، رغم كثير المحطات المريبة في سالف أيامي، لم تصلح تلك الصومعة التي رسمتها ذات مساء خلفية لصورة ياسمين، لم تكن قادرة على إصلاح بيني بين معارج السحر، وأناشيد المريدين، لأصير هاربا لاجئا إلى آخر حصوني، التكتم والصمت الجسورين، هي آخر قلاعي، التي بت أشعر أنها تنهار وتتهاوى، وأنني أشعر أنني علي أن أروي معاناتي لكائن ما، حتى ولو تحول إلى هذيان في خلاء الكون في ظلمة الليل البهيم.

القلم ربما يكون عونا لتسجيل هواجسي وخوفي وألمي وأحلامي الممتعة المفزعة، وشعور ينتابني أنني في حالة تسمح لي بالتحول من المعاناة إلى الانفراج، أم أن العودة المكثفة لهاجس الغريزة هو المفتاح السحري للشفاء.

ألم الاستذكار محنة أعيشها في حالة الوعي التام، وأنا الذي يقلقني في حالة الحلم واللاوعي كونها رحلة عذاب ومسيرة عناء، وأن أختار الألم طائعا، وياسمين تسمع غير مصدقة ودموعي التي تنسكب كيف لها أن تتحملها وتستوعبها ياسمين أنت الحكيم والمعالج.

أنتظر موجات غضبها عندما تنفجر في وجهي كطوفان تعنفني وتلومني لحلم ربما كان أمنية متجذرة داخلي العودة إلى حضن بركة، ذلك الحضور الذي غدا باهتا بتلك الخلطة العجيبة التي يصنعها حلمي للحظات استرخاء حلمي يخلط بين أنفاس بركة وجسد ياسمين، صار خليطا فوضويا معتما، أستشعر فيه اللذة ولا أعرف مصدرها.

إلهي أخرج التائه من مدارات الألم ومتاهات الضياع!

حياتي صارت كلها استعارات يمازج الواقع بالحلم، صور ورموز أبتدعها، حلم يخطف ساعات سكينتي، أحبه أن يعاودني ولكنه يشعرني بالخذلان والخيانة أمام ياسمين، أشعر أنني أخذلها في عالمي القاسي والقصي، مما يشوش الصورة المثالية التي رسمتها لنفسي، ورسمتها ياسمين دهرا طويلا.

في أحيان كثيرة وأنا ألوك الماضي من خلال تذكر عقلاني محض، ذلك الماضي الذي ليس بإمكاني اقتلاعه من تربته القديمة، حتى غدت لغتي المستعملة اليوم خطابا مجهولا حتى بالنسبة لي، أقدم لياسمين ذاتي كما هي، أشك أن لها القدرة على التأويل الصحيح لما أعاني، وأن تعوج المعنى. ليس لي غير أن أعيش عذابي بقناع أرتديه ويخفي حالتي عن المراقبين، وأواصل تجاهلي للألم وقسوة واقعي، وأواصل مارتون الذكرى، الذي ربما يدمر يومي، ذلك الماضي الذي يتنقل عبر الصفحات والسطور ينتقي منها ما شاء ويطمس أخرى ويغيب النقاط والحروف، ليس لديه نقطة ارتكاز يتمركز حولها، يفاجئك بكمائنه المعدة إعدادا جيدا، يجعلني أقف معجبا أتلذذ بالماضي وأهيم فيه، متوهما أنه وسيلتي للهروب، ليصل بي حد الهذيان، ويجعل الحلم أرحم لي، لتنغلق ذاتي على الحلم في عملية باهتة صامتة.

في أيام محنتي التي تأبى أن تنقضي، صارت ياسمين تعد حياتها معي لغزا وطلسما، لكن مالا تدركه أنني سر عظيم وما أخفيه أكثر مما أبوح به، لم تكن إلا نتاج رخيص لمتوالية الاعوجاج، لو كنت حقا لغزا كما تقول لكان بمقدورها واستطاعتها أن تفك رموزي، لم تكن أسراري في عالمي إلا لحظة وعي مزيف ودرءً لانتشار خبري وذيوعه، لم يكن سري إلا حزمة من الأسرار أحملها تخفي تحتها ذاتي التي تشعر بالذنب وتعاقب نفسها عليه، تمنيت لو كنت حقا لغزا حتى تستطيع ياسمين فك شفراته وأن تؤوله وفق أدواتها.

اللوحة الملقاة على أرض الغرفة ويد ياسمين الممتدة نحو الأفق والصومعة الخلفية، وعيونها الشاردة، وتلك البسمة الغامضة التي تنطلق من شفتيها العذبتين لا تشبهان شفاه بركة الغليظة، التي لم أترك لها فرصة أن تشمت بياسمين عبر إناث كثر قد يزاحمنها المشهد.

ياسمين قد جعلتك باسمة راضية في ما قدرت على صوغه من عالم الرؤية، تجاوزت فيه قديمي وزمني الضائع وسالف أيامي، يدك الممتدة في الأفق هي من ستأخذ بيدي، والصومعة من خلفي تمد من سبعة أبحر، عطاؤها لا ينتهي ومدادها لا ينتهي، لن أفكك رموزي ولكني ها أنا أعود لصوابي كما كنت ترغبين، أود الخضوع مثل غيري لقوانين صنعها الآخرون لتحمل قساوة الحياة، ياسمينتي التي لم تستطع أن تحبل، كان رحمها عقيما، بيتي القديم المتصدع لا أملك القدرة على تغييره أو صيانته من الفراغ أنطلق وإليه أعود، لم أستطع أن أستخدم الأشياء من حولي والثقافة التي أملكها، لا أملك إلا ضميرا يقظا أستخدمه في الحالات القصوى الذي نجح إلى حد كبير في زرع عقدة الذنب عبر طقوس أتوسط بها، لم يكن صعود الجبل ومعاقل

السحرة، وطيف الغجرية إلا هيمنة الخارق الذي قادني إلى الحسم الخيالي عبر الحلم الفوضوي.

عندما دخلت ياسمين كنت قد رفعت اللوحة للجدار، الصورة التي نريد رفعها تلتصق بأطياف تسبح في الفضاء، أجنحة بلا ريش، وأياد بلا أنامل تزحزح غطاء جبي العميق.

انتهى في 2020/04/20